BARBARA CARTLAND

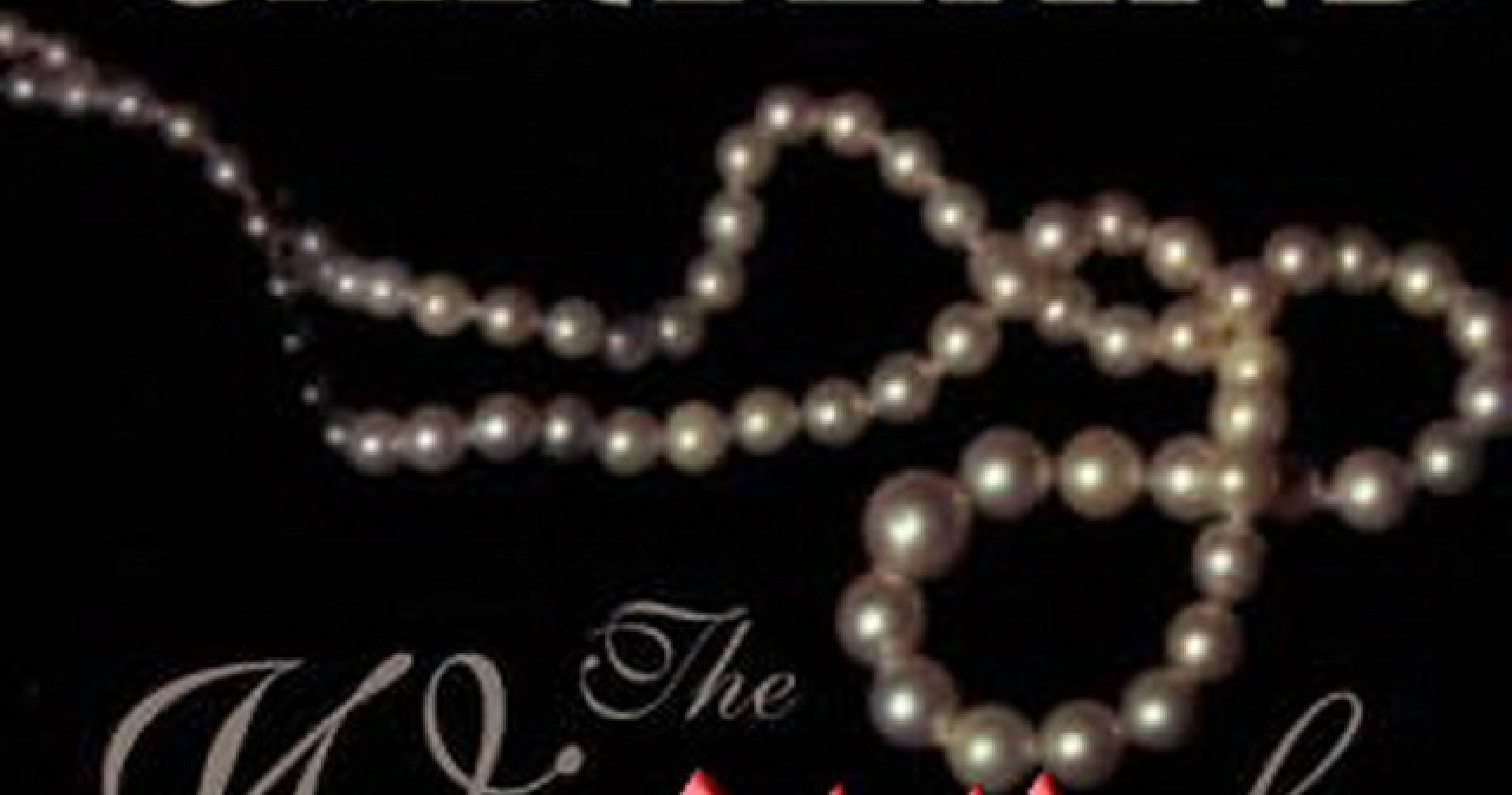

The Wings of Ecstasy

سر الخادمة

وحده فاضيه
www.liilas.com

سر الخادمة

لم يكن لجيسيلدا اي خيار آخر.

إن شقيقها الاصغر سناً لن يتمكن من اجراء العملية الجراحية دون مال.. قد يكون مخدومها الثري الماركيز ليندهرست طيباً وكريماً، لكنها لن تقبل الاحسان منه. يجب الا يعرف السبب الرهيب الذي دفع بعائلتها الى مثل هذا الفقر.

لبنان: ٣٠٠٠ ل.ل - سوريا: ٦٠ ل.س - الكويت: ٧٥٠ فلس - البحرين: ١دينار - قطر: ١٠ دراهم - السعودية: ١٠ ريالات - الامارات: ١٠ دراهم - الاردن: ١,٥ دينار - مصر: ٤ جنيه - المغرب: ٣٠ درهم مغربي - سلطنة عمان ١ ريال.

الفصل الأول

١٨١٦

«أيها المغفل الوقح! اخرج من هنا... هل تسمع؟ إنك مصروف من الخدمة... ولا أريد أن أرى وجهك القذر مرة أخرى!»

اسرع الخادم بالخروج من الغرفة، بينما تابع الماركيز يسبّ وينزل الشتائم بأنواعها، كما القائد المتمرس التي تخرج من فمه مثل هذه الكلمات بسهولة ومرونة.

بعدها، وعندما خف اضطراب اعصابه وحدته قليلاً، شعر بحركة في الطرف الآخر للغرفة الواسعة، فحول نظره ليرى خادمة تقف عند النافذة تحاول تنظيف قضبانها الحديدية.

أسند ظهره إلى الوسادة كي يتأكد أكثر من أن هناك أحد غيره في الغرفة.

ليقول بعد ذلك: «من أنت؟ وماذا تفعلين هنا؟ لم أكن أعرف أن هناك أحد في الغرفة.»

التفتت الخادمة نحوه، فلاحظ ضعفها، وشحوب وجهها بشكل غير طبيعي وقد اعتمرت قلنسوة نسائية ربطت أطرافها من تحت ذقنها.

www.liilas.com
وحده فاضيه

باربرا كارتلاند

باربرا كارتلاند هي أشهر كاتبة روايات في العالم، وهي كذلك مؤرخة، وكاتبة مسرحية ومحاضرة ومتحدثة سياسية وشخصية تلفزيونية، وقد كتبت حتى الآن ٥٩٠ كتاباً بيع منها أكثر من ستمائة وعشرين مليون نسخة في كل أنحاء العالم.

لها أيضاً أربعة كتب عن سيرتها الذاتية، وكذلك سيرة والدتها وسيرة أخيها رونالد كارتلاند الذي كان أول عضو في البرلمان يقتل أثناء الحرب الأخيرة. وقد قدم لهذا الكتاب السير ونستون تشرتشل وقد أعيد طبعه أخيراً مع مقدمة للسير آرثر برايانت.

وقد حطمت الرقم القياسي العالمي لنشر الكتب لمدة ستة عشرة عاماً، وذلك بإصدارها ثلاثة وعشرين كتاباً في السنة. حصلت على لقب (حاملة وسام الشرف البريطاني) سنة ١٩٩١ من يد جلالة الملكة، وذلك تقديراً لمساهماتها الأدبية وللسنوات قضتها في خدمة المجتمع.

سلسلة روايات الجيب

باربرا كارتلاند

أ - ١٢٣

سر الخادمة

دار
مؤسسة النحاس
للطبع و النشر و التوزيع
بيروت - لبنان

أجابت الخادمة بارتباك: «إنني... إنني ألمع قضبان النافذة الحديدية يا سيدي.»

لاحظ وبدهشة، أن صوتها كان لطيفاً وبه تهذيباً رفيعاً، فأمعن النظر فيها وهي تتوجه نحو الباب حاملة بيدها دلواً من الماء.

أسرع يقول لها: «تعالي إلى هنا!»

تردّدت للحظات قليلة، لكنها لم يسعها في النهاية إلا إلى أن تتقدم، فمشت ببطء نحوه، وتبين له كم أنها أصغر سناً مما كان يتصور.

وقفت إلى جانبه، فلفت نظرها الضمادة الملطخة بالدماء حول ركبته والتي كان يحاول خادمه الخاص ازالتها عنه.

كان الماركيز على وشك التكلم عندما قالت له بنفس النبرة اللطيفة والمثقفة: «هل تسمح لي... أن أزيل الضمادة عن ركبتك؟ انني أملك خبرة لا بأس بها بمهنة التمريض.»

نظر الماركيز إليها بدهشة، ثم قال بنبرة قاسية: «لكن يجب أن لا تؤلميني كما آلمني ذلك الخادم المغفل الذي طردته بعيداً عني.»

وضعت الخادمة الدلو على الأرض، ونظرت إلى ساق الماركيز متفحصة، ثم أزاحت طرف الضمادة جانباً.

قالت: «أخشى أن أقول لك يا سيدي بأن الضمادة التي ربطت ساقك، لم تلف بطريقة صحيحة، ولهذا السبب التصقت بالجرح، الأمر الذي قد يسبب لك آلاماً شديدة لو حاولنا نزعها، الا إذا استعملنا الماء الساخن.»

فقال الماركيز بخشونة: «افعلي ما يطيب لك! سأحاول أن أخفف من لهجتي معك.»

«انسى بأنني امرأة واستعمل اللهجة التي تريدها يا سيدي. لكن والدي كان يقول، الرجل الذي يمكنه أن يتحمل الآلام دون صراخ وشتم، لهو بالفعل رجل شجاع!»

ابتسم الماركيز ابتسامة خفيفة، بينما توجهت الخادمة إلى الوعاء الذي يستعمل لغسيل اليدين. غسلت يديها أولا، ثم أفرغته في المغسلة لتملأه بالماء الساخن الذي كان قد أحضره خادمه الخاص.

جاءت بالوعاء ووضعته على طاولة إلى جانب السرير، ثم بللت قطعة من القطن بمائه الساخن، وأخذت تمسح ببطء لتتمكن من ازالة الضمادة التي كانت التصقت بالجرح الذي أصيب به من بعض الشظايا والتي كان قد نزعها الجراح قبل الآن.

لقد أطلق عليه النار من مسافة قريبة، وبسبب ارادته القوية ونفوذه كقائد عام، لم تبتر ساقه بعد معركة واترلو.

فقال له وقتها الجراح معترضاً: «لكن يا سيدي ستصاب بالغرغرينا، وعندئذ لن تفقد ساقك فقط، بل حياتك!»

أجاب الماركيز: «سأجرب حظي في ذلك، لأنني لن أكون سعيداً إذا عشت حياتي اعرج يعاونني الجميع على التنقل من مكان إلى آخر، والأكثر من ذلك، عدم استطاعتي من امتطاء صهوة الجواد بسهولة.»

«إنني أحذرك يا سيدي...»

فقاطعة الماركيز قائلاً: «كما انني اتجاهل تحذيرك وأرفض مهارتك كجراح التي لا يمكن مناقشتها.»

إنه ومنذ بضعة شهور، تمكن من العودة إلى بريطانيا على حمالة وهو في حالة من الألم الشديد.

فقد جاء إلى شيلتنهام بعد ما تحمله من معالجات ميؤوس منها في لندن، وبعد أن سمع الكثير عن مهارة الجراح توماس نيول المذهلة.

وكان الماركيز في الواقع، واحد من مئات الناس الذين جاؤوا إلى شيلتنهام بسبب اطبائها المميزين.

فبالرغم من أن الجراح توماس نيول سبب للماركيز آلاما مبرحة أثناء المعالجة، وجد وبعد وقت طويل، بأن آثار الجراح أصبحت في حالة جيدة كما أنها بدأت تلتئم.

الآن، وبينما كانت الخادمة تنزع الطرف الأخير للضمادة، لم ينزل بها الشتائم، لكنه ولمرتين، أغمض عينيه قليلاً لبعض الألم، وأخذت بعد أن انتهت من مهمتها تنظر حواليها تفتش على ضمادات جديدة.

أسرع الماركيز يقول وقد أدرك ماذا تريد: «إنها هناك فوق الطاولة.»

وجدت الخادمة في العلبة الضمادات، لكنها أخذت تنظر إليها باستياء.

سألها الماركيز: «ماذا هناك؟»

«ليس هناك من شيء، إنما لا أرى في هذه العلبة ما يمنع التصاق الضمادة بالجرح. فلو يسمح لي سيدي، سأحضر معي مرهماً تركيبه والدتي، فهو لا يلئم الجرح فقط، بل يمنع الضمادة من الالتصاق به.»

أجاب الماركيز: «يسعدني جداً أن تأتيني بهذا المرهم.»

فقالت الخادمة: «سأحضره غداً.»

ثم وكأن الماركيز انتبه لشيء ما، قال لها: «ولما علي أن انتظر ليوم الغد؟»

«لأنني لا يمكنني أن أغادر قبل انتهاء فترة عملي.»

«وما هو عملك؟»

«إنني خادمة في هذا المنتجع.»

«هل تعملين هنا منذ مدة طويلة؟»

«جئت البارحة فقط.»

حول الماركيز نظره الى الدلو النحاسي الذي وضعته على الأرض، ثم قال لها: «اعتقد انه اسند اليك اصعب الأعمال واخشنها، كما لا يبدو عليك ان بامكانك ان تتحملي مثل هذا العبء الكبير.»

«عليّ ان اتدبر امري.»

قالت الخادمة كلماتها الأخيرة بعزم، ففهم ان ما قامت به من اعمال لغاية الآن، لم يكن اسهل من هذا.

كانت نظراتها اليه متسائلة، ولم تشعر بعد ذلك إلا بحمرة الخجل تعلو خديها، لكنها تابعت عملها بتضميد جراحه بهدوء.

نظر الماركيز إلى كفيها النحيلين وعرف متى شاهد مثلهما لآخر مرة.

انهما مثل أطفال البرتغال، أولاد الفلاحين الذين نحلت وضعفت أجسادهم! لقد تركوا هؤلاء الأطفال يعانون من الجوع المميت من قبل الجيوش الغريبة.

الجوع المميت!

لقد آلمه هذا الأمر وجلب القرف إلى نفسه، وقد كان أمر من ابشع الأمور في الحروب ولا يمكن له أن يخطىء بأمرها بعد أن شاهد الكثير من هذه المعاناة.

فكر بكل ذلك بينما كانت الخادمة قد وصلت على نهاية

تضميد جرحه بمهارة واتقان عجز خادمه الخاص على الاتيان بهما.

وبعد انتهائها من عملها، حملت الدلو النحاسي.

فقال الماركيز على الفور: «انتظري! لقد سألتك سؤالا لم تجيبي عليه، من أنتِ؟»

«اسمي يا سيدي، جيسيلدا... جيسيلدا شارت.»

لاحظ الماركيز ترددها قبل أن تعلن اسمها الثاني ولم يخطىء بذلك.

«ألست معتادة على مثل هذا النوع من الاعمال؟»

«لا يا سيدي، لكنني أشكر حظي لأنني حصلت عليه.»

«هل عائلتك فقيرة؟»

«فقيرة جداً يا سيدي.»

«ممن تتألف؟»

«والدتي وشقيقي الاصغر.»

«هل توفي والدك؟»

«نعم يا سيدي.»

«إذاً، كيف عشت قبل مجيئك إلى هنا؟»

خامره شعور بأن جيسيلدا مستاءة من أسئلته، مع أنه كان بإمكانها أن ترفض الاجابة عليها.

بقيت واقفة وهي تحمل الدلو النحاسي الثقيل الذي أحنى ظهرها بعض الشيء، الأمر الذي جعلها تبدو ضعيفة جداً على مثل هذه الاعمال.

فكر أنه من المؤكد تعاني الجوع الشديد حتى أنه أدرك أن بياض وجهها يعود إلى ضعف في الدم عندها.

فقال بحدة: «ضعي هذا الدلو على الارض عندما أكلمك.»

وضعت الدلو على الارض، بينما اتسعت عينيها بذهول وترقب وكأنها كانت خائفة من الذي قد يقوله.

ثم قال بعد لحظة: «ما تقومين به من أعمال لهو مضيعة لذكائك، من تلميع قضبان النافذة الحديدية إلى غسل الارض، بينما يمكنك القيام بأعمال اقل تعب من هذه.»

لم تجب جيسيلدا كما أنها لم تأتِ بأية حركة، بل وقفت مكانها تنتظر بينما تابع الماركيز يقول: «سأقترح على مسؤولة المنتجع أن تبقي على خدمة جناحي دون أن تقومي بأي عمل آخر.»

«لا أعتقد أنها قد توافق على ذلك يا سيدي. فمن النادر أن تجد خادمات هذه الايام، ولهذا السبب وافقت على أن التحق بهذا العمل دون غيره في هذا المنتجع.»

فقال الماركيز: «لا تهمني بتاتاً مشاكل المسؤولة. فإذا طلبت انا ذلك وهي غير موافقة، هذا شأنها وسألحقك بخدمتي.»

«إنني شاكرة لك يا سيدي... لكنني لا أستطيع الموافقة على طلبك.»

سألها الماركيز بدهشة: «ترفضين؟ وما يكون سبب رفضك هذا؟»

«لأنني يا سيدي، لا يمكنني أن أجازف بالوظيفة التي اسندت الي في هذا المنتجع، وكما تعلم من النادر أن يحصل المرء على عمل بعد هذه الحرب.»

«تجازفين؟ عن أية مجازفة تتكلمين؟»

«إنني لا أرغب أن أطرد... كما طرد خادمك الخاص منذ قليل.»

ضحك الماركيز ثم قال: «إذا كنت تتصورين بأنني طردت باتلي، فأقول لك انك مخطئة في تصورك! حتى لو كنت أعني ذلك حقاً، فأنا أشك من مغادرته... فهو في خدمتي منذ خمسة عشر سنة ومعتاد على حدة كلامي، لكنني ساحاول ان انتبه جيداً عندما اكلمك انت بالذات.»

شبكت جيسيلدا اصابع يديها ببعض ونظرت الى الماركيز بتساؤل اكثر من السابق.

فسألها: «ما الذي يقلقك؟ أنا لا اعتقد أنك قد تجدين في خدمة جناحي شيئاً غير مناسب لك، بدلاً من أن تصدر اليك الاوامر القاسية في الخدمات المنزلية.»

«ليس الامر كذلك... يا سيدي.»

«ماذا يكون إذاً؟»

«عشرة شيلينات في الاسبوع يا سيدي، وهذا أجر جيد لي. وأعلم جيداً أنني لن أحصل على أجر مماثل في مكان آخر.»

فقال الماركيز بدهشة: «عشرة شيلينات فقط؟ حسناً، سأمنحك ضعف هذا المبلغ.»

نظرت اليه بدهشة وذهول تام، حتى انه تمكن من رؤية الحماس والبهجة يطلان من عينيها.

ثم دهش عندما وجدها ترفع رأسها بعزة قائلة: «لا يسعني أن أقبل الاحسان يا سيدي.»

فقال الماركيز بجفاف: «مع انك تحتاجين اليه كثيراً.»

علت حمرة الخجل على خديها، فتابع يقول: «هل هناك مدخول آخر يدخل منزلك غير الذي تحصلين عليه؟»

«كلا يا سيدي.»

«إذاً، كيف كانت حياتك لغاية الآن؟»

«عرفت والدتي... بمهارتها في التطريز... لكن لسوء الحظ، ما عادت اصابع يدها تقوى على العمل في هذه الايام.»

«في هذه الحالة، عليك ان تقبلي مني جنيها واحداً لكل اسبوع.»

ترددت جيسيلدا للحظات قبل ان تجيب: «شكراً لك يا سيدي.»

ثم اضاف: «ستحصلين على اجر اسبوع الآن، هناك جنيها في الجارور الأول للخزانة. ثم اذهبي وبدلي ملابسك لتتناولي طعام الغداء معي قبل ان تذهبي الى المنزل لتأتيني بالمرهم الذي حدثتني عنه.»

«تريدني... أن أتناول طعام الغداء معك... يا سيدي؟»

«هذا ما قلته.»

«لكن هذا غير ممكن يا سيدي.»

«ولما لا؟»

«انني... خادمة يا سيدي.»

«ماذا؟ هل تحاولين ان تعلمينني الأصول. يحق للمربية ان تأكل مع من تحضنهم، كما يحق للمعلم الخصوصي أن يأكل مع تلاميذه، لذا لو أنني طلبت من ممرضتي والمسؤولة عن خدمة جناحي أن تتناول الطعام معي، عليها أن تطيع ذلك.»

«نعم... يا سيدي.»

«اتبعي تعليماتي واطلبي لي مسؤولة المنتجع، سأرى باتلي أولاً، وأتوقع أن تجدينه في الخارج.»

أجابت السيدة كينغدوم: «ان الفتيات لا ترغبن في العمل في القصر أو في المنزل.»

تابع الماركيز يسألها: «ما الذي تعرفينه عن هذه الفتاة؟»

«لا شيء يا سيدي، عدا أنها تتكلم بطريقة مهذبة وكأنها من طبقة أفضل من بقية الخدم الذين تقدموا إلى هذه الوظيفة والذين أيضاً لا يعدوا بالكثير. لذا قبلتها على أمل أن تنال رضى الذين يأتون إلى هذا المنتجع.»

«ألم تلاحظي أنها تبدو أكثر ضعفاً لأن تقوم بمثل هذه الاعمال الصعبة؟»

رفعت السيدة كينغدوم كتفيها بعدم اكتراث، واجابت بكلمات قليلة بأن الفتاة قامت بالعمل في كل الاحوال وإلا لكانت تخلصت منها.

لكن الماركيز وبسبب حنكته في التصرف مع الناس، شعر بكل الذي لم تفصح عنه السيدة كينغدوم.

لذا فقد قال: «ستكون جيسيلدا خادمتي وسأدفع لها أجرها. وبما أنها لا تنام في هذا المنتجع، ستحتاج إلى غرفة خاصة بها.»

«سأنظر في هذا الامر يا سيدي.»

ثم ودعته باحترام وغادرت الغرفة.

صرخ الماركيز في تلك الاثناء ينادي على خادمه الخاص قائلاً: «الطعام يا باتلي! اين الطعام الذي طلبته؟»

«سيحضر يا سيدي حالاً، لكن من غير عادتك أن تأكل في مثل هذا الوقت المبكر.»

فقال الماركيز: «سآكل متى يطيب لي، وقل للخادم العجوز بأنني اريد أفضل ما لديه من الشراب المنعش.»

«حسناً يا سيدي.»

دخل خادمان آخران في تلك الاثناء يحملان طاولة ووضعاها إلى جانب سرير الماركيز، ثم خرجا ليدخلا من جديد وكل منهما يحمل صينية فيها كل ما لذَّ وطاب من المأكولات التي لا يتناولها سوى الميسورين والتي تدل على مدى ذوق الكولونيل في اختيار الاصناف.

فلقد كان الكولونيل بركلي على عكس العديد غيره، يهتم اهتماماً خاصاً بالطعام والشراب، حتى أنه كان يأتي بوصفات طعام جديدة من كل اقطار العالم.

فكر الماركيز بينه وبين نفسه وهو ينظر إلى الطعام أمامه: «سأختار هذه الليلة أصنافاً أخرى غير هذه.»

قرر ذلك، لأنه أراد أن يرى بنفسه كيف تكون ردة فعل شخص به جوع شديد أمام أصناف متنوعة من الطعام.

فلكم تمنى وهو في البرتغال لو أن لديه مئات من العربات تمتلىء بالقمح ليوزعها على الفقراء!

لكن كان ذلك غير متوفر لديه، وبقي الفقراء يعانون من الجوع المميت.

إنما الذي لم يتوقعه، هو أن يجد اشخاصاً جياع في بريطانيا التي بالرغم من سنوات الحرب الطويلة مع نابليون، بدت تزخر بشكل هائل بالحليب والعسل.

عادت جيسيلدا إلى الغرفة وقد بدت مختلفة كثيراً عما كانت عليه في الأول.

نظرت جيسيلدا إلى الماركيز نظرة سريعة، ثم حملت الدلو النحاسي وخرجت من الغرفة بهدوء ثم أقفلت بابها.

فكر الماركيز بعد خروجها، أنه هناك شيء غامض في هذه الخادمة، وهو عادة يحب الغموض وكشف خفاياه.

دخل باتلي غرفة الماركيز بعد لحظات قليلة، فقال له على الفور: «سأوظف تلك الشابة لخدمة جناحي يا باتلي.»

أجاب باتلي: «ارجو أن تنال رضاك يا سيدي.»

تكلم بغيظ مكبوت، انها طريقة يتصرف بها عادة بعد كل مرة يغضب الماركيز، لكن كليهما كان يعلم بأنها تمثيل لا أكثر ولا أقل.

فتابع الماركيز: «إنها ليست بالخادمة العادية يا باتلي.»

«لا يا سيدي، ولقد لاحظت ذلك عندما شاهدتها في الامس.»

«من أين جاءت؟»

«سأحاول أن أعرف ذلك يا سيدي. لكنني لا أتصور بأنني قد أعرف الكثير عنها، وبالمناسبة فهم يجدون صعوبة في ايجاد خادمة في هذه الايام، وكما تعلم، فالكولونيل يريد دائماً أن تكون الخدمة كاملة في كل الاوقات.»

لقد كان يعلم الماركيز بأن ذلك صحيح، وهو الذي كان بضيافة الكولونيل الذي يملك كل هذه المقاطعة ويبغى دائماً الخدمة الحسنة، والا ينزل سخطه وغضبه على كل شيء.

لقد كان وليام فيتزهاردينغ بركلي الملك الاخير المتوج على شلتنهام، كما كان الابن الاكبر سناً للماركيز الخامس وزوجته السيدة دويجر بركلي التي أنجبت ثماني أولاد

أكبرهم سناً الكولونيل بركلي الذي ينزل الماركيز بضيافته، حمل لقب رئيس العائلة والملك الوحيد على قصر بركلي وممتلكات العائلة.

إنه ضابط صارم مستبد، انعكس ذلك على كل من يخدمونه في مقاطعة شلتنهام.

وهذا المنتجع الذي يخضع الماركيز لمعالجة جراحه فيه، كان احدى املاك الكولونيل، حيث يقصده الناس للراحة والاستجمام.

إنه ما زال اعزب، ومحط انظار واهتمام العائلات كي يصبح صهرهم، لكنه لم يكن يرغب بأن يضحي بحريته الا متى شعر أنه مستعد لذلك.

لقد تعرف الماركيز بالكولونيل في حقل للصيد وأصبحا صديقين بحكم هواية الصيد التي تجمعهما.

أما الآن فالكولونيل في قصره، بينما الماركيز يخضع للراحة والمعالجة في منتجعه الذي وجد فيه الرفاهية والمعاملة الحسنة اللذان يلائمان ذوقه. لقد كان يعلم أن الفندق الافضل الموجود في بلوه، لم يكن ليقدم له الراحة كما يقدمها الكولونيل لمن هم في ضيافته.

لكن الذي لم يخطر على باله قط، أنه قد يضطر إلى نقل تلك الخادمة لتخدمه وتعتني به دون سواه.

وعندما جاءت مسؤولة المنتجع التي أرسل في طلبها ليقول لها عن مخططاته، أبلغت الماركيز باحترام، انه من الصعب ايجاد خادمة لتحل مكان جيسيلدا حتى لو حاولت ذلك.

فسألها الماركيز: «لما الصعوبة؟»

أجابت السيدة كينغدوم: «ان الفتيات لا ترغبن في العمل في القصر أو في المنزل.»

تابع الماركيز يسألها: «ما الذي تعرفينه عن هذه الفتاة؟»

«لا شيء يا سيدي، عدا أنها تتكلم بطريقة مهذبة وكأنها من طبقة أفضل من بقية الخدم الذين تقدموا إلى هذه الوظيفة والذين أيضاً لا يعدوا بالكثير. لذا قبلتها على أمل أن تنال رضى الذين يأتون إلى هذا المنتجع.»

«ألم تلاحظي أنها تبدو أكثر ضعفاً لأن تقوم بمثل هذه الاعمال الصعبة؟»

رفعت السيدة كينغدوم كتفيها بعدم اكتراث، واجابت بكلمات قليلة بأن الفتاة قامت بالعمل في كل الاحوال وإلا لكانت تخلصت منها.

لكن الماركيز وبسبب حنكته في التصرف مع الناس، شعر بكل الذي لم تفصح عنه السيدة كينغدوم.

لذا فقد قال: «ستكون جيسيلدا خادمتي وسأدفع لها أجرها. وبما أنها لا تنام في هذا المنتجع، ستحتاج إلى غرفة خاصة بها.»

«سأنظر في هذا الامر يا سيدي.»

ثم ودعته باحترام وغادرت الغرفة.

صرخ الماركيز في تلك الاثناء ينادي على خادمه الخاص قائلاً: «الطعام يا باتلي! اين الطعام الذي طلبته؟»

«سيحضر يا سيدي حالاً، لكن من غير عادتك أن تأكل في مثل هذا الوقت المبكر.»

فقال الماركيز: «سآكل متى يطيب لي، وقل للخادم العجوز بأنني اريد أفضل ما لديه من الشراب المنعش.»

«حسناً يا سيدي.»

دخل خادمان آخران في تلك الاثناء يحملان طاولة ووضعاها إلى جانب سرير الماركيز، ثم خرجا ليدخلا من جديد وكل منهما يحمل صينية فيها كل ما لذَ وطاب من المأكولات التي لا يتناولها سوى الميسورين والتي تدل على مدى ذوق الكولونيل في اختيار الاصناف.

فلقد كان الكولونيل بركلي على عكس العديد غيره، يهتم اهتماماً خاصاً بالطعام والشراب، حتى أنه كان يأتي بوصفات طعام جديدة من كل اقطار العالم.

فكر الماركيز بينه وبين نفسه وهو ينظر إلى الطعام أمامه: «سأختار هذه الليلة أصنافاً أخرى غير هذه.»

قرر ذلك، لأنه أراد أن يرى بنفسه كيف تكون ردة فعل شخص به جوع شديد أمام أصناف متنوعة من الطعام.

فلكم تمنى وهو في البرتغال لو أن لديه مئات من العربات تمتلىء بالقمح ليوزعها على الفقراء!

لكن كان ذلك غير متوفر لديه، وبقي الفقراء يعانون من الجوع المميت.

إنما الذي لم يتوقعه، هو أن يجد اشخاصاً جياع في بريطانيا التي بالرغم من سنوات الحرب الطويلة مع نابليون، بدت تزخر بشكل هائل بالحليب والعسل.

عادت جيسيلدا إلى الغرفة وقد بدت مختلفة كثيراً عما كانت عليه في الأول.

لقد ارتدت فستاناً بسيطاً أزرق اللون لاحظ الماركيز أنه لا يتماشى مع الموضة الحديثة، كما أن نوعية القماش لا ترتديه سوى الخادمات أمثالها.

وقفت قرب الباب ثم نظرت إلى الماركيز بعد أن ألقت نظرة سريعة على الطاولة التي كثرت فيها الاطباق الفضية بمختلف اصناف الطعام.

فقال لها: «انني انتظرك كي تنضمي إلى مائدتي، لكن أعتقد لو أننا نؤجل الطعام الآن لبعد قليل.»

«كما تريد يا سيدي.»

«اريد كوباً من شراب الورد أولاً، وآمل أن تشاركينني بمثله.»

تقدمت جيسيلدا من الطاولة وسكبت في الكوب الشراب الذي طلبه الماركيز وقدمته إليه، ثم نظرت بتردد إلى الكوب الآخر الذي جهز لها.

فحثها الماركيز قائلاً: «هيا، سينفعك بعضاً منه.»

«اعتقد يا سيدي... أن ذلك ليس بالتصرف الحكيم.»

«لماذا؟»

ادرك بعد أن سألها بأنه تفوه بسؤال سخيف فبادرها بسؤال آخر: «متى تناولت الطعام لآخر مرة؟»

«مساء أمس وقبل أن أخرج من هنا.»

«هل تناولت وجبة جيدة؟»

«اعتقدت في البداية بأنني جائعة، لكنني اكتشفت بعد ذلك بأنني أجد صعوبة في ابتلاع الطعام.»

فهم الماركيز أن ذلك عائد لسوء في نوعية التغذية من الاساس.

فسألها عند ذلك: «اعتقد بأنك أخذت الطعام إلى منزلك بما أنك لم تستطعي تناوله.»

«لم أستطع أن... أفعل ذلك.»

«ألم يعطوك الطعام؟»

«لقد طلبت من الطباخ فيما لو يمكنني أن آخذ نصف الدجاجة التي تركتها من عشائك يا سيدي والتي كان يريد أن يرميها في سلة المهملات.»

توقفت قليلاً قبل أن تتابع: «لكنه لم يكترث لي بل رمى بنصف الدجاجة للكلب الذي كان قد تناول الفضلات الكثيرة ولم يبد عليه الاهتمام بالتهامها.»

حكت قصتها دون أن تظهر أي أسف أو حزن، بل بطريقة باردة وكأن الامر لا يعنيها.

فقال الماركيز: «اجلسي، أريد أن أراك تاكلين، كما أريدك أن تاخذي معك كل ما يتبقى من طعام.»

قالت بعزة: «انك تجعلني أشعر بالخجل من نفسي، عندما أخبرتك قصتي لم أكن أتوسل إليك لتشفق علي.»

أجابها الماركيز: «لقد قررت ذلك حتى قبل أن تخبريني بقصتك، والآن كلي يا آنستي وتوقفي عن المناقشة. فإذا كان هناك شيئاً يثير أعصابي كثيراً، يكون عندما يناقشني أحدهم بأمر اقترحته.»

جلست جيسيلدا إلى المائدة وقالت مبتسمة: «آسفة يا سيدي... وأنا في الواقع شاكرة لك كثيراً.»

«إذاً، اظهري شكرك لي بأن تاكلي شيئاً. إنني أكره تلك المرأة.»

ابتسمت مرة أخرى وقد أدركت انه يعني مسؤولة

المنتجع، ثم انتظرت أن يضع هو في البداية قطعة من اللحم في طبقه قبل أن تضع هي قطعة صغيرة ولم تبدأ بالأكل قبل ان يبدأ هو.

لكنه خاب أمله وهو يراها تتناول الطعام من دون شهية، فقد كانت جيسيلدا تأكل ببطء وتلوك الطعام ببطء أكبر، حتى انها انتهت من وجبتها قبله بكثير.

اقنعها الماركيز بعد ذلك أن تشرب المزيد من الشراب، لكن كل ما شربته كان بضعة جرعات.

ثم قالت له بنبرة معتذرة: «لقد عشت طوال حياتي من دونه، لكن الآن وبواسطة المال الذي نقدته لي، سنتمكن من العيش بصورة أفضل.»

فقال الماركيز بجفاف: «لا اعتقد ان ذلك سيدوم طويلاً، لقد علمت بأن الأسعار ارتفعت بشكل هائل منذ الحرب.»

«هذا صحيح، لكننا ما زلنا نتدبر الأمر.»

هل عشت طوال حياتك في شلتنهام؟»

«لا.»

«أين كنت تعيشين؟»

«في قرية صغيرة في ورسيسترشاير.»

«لماذا انتقلت إلى هذه البلدة إذاً؟»

لم تجب جيسيلدا في الحال وكأنها كانت تتردد بالذي ستجيبه، ثم قالت: «لو تأذن لي بالخروج يا سيدي كي أحضر لك المرهم الذي ستحتاجه لساقك. لست متأكدة فيما لو عند والدتي ما يكفي. إذا لم يكن هناك، فسأطلب منها أن تصنع بعضاً آخر منه وهذا سيستغرق بعض الوقت. لكنني أرغب في أن تستعمل منه الليلة.»

نظر الماركيز إليها متأملاً ثم قال: «بمعنى آخر، أنت لا تريدين الاجابة على اسئلتي!»

«لا... يا سيدي.»

«ولما لا؟»

«لا أريدك يا سيدي أن تظن بأنني وقحة، لكنني لا أرغب بالتكلم عن حياتي الخاصة.»

«لماذا؟»

«لأسباب... لا أستطيع البوح بها... يا سيدي.»

التقت نظراتها بنظرات الماركيز وبدا الامر وكأن هناك معركة في الارادة بينهما.

ثم قال بنبرة غاضبة: «لماذا عليك أن تكوني بهذه السرية والغموض؟ إن أمرك يسليني، كما أنه ليس هناك شخص استمع الى حديثه ويلهيني عن التفكير بساقي الجريحة.»

«آسفة إذاً... لأنني قد أخيب آمالك يا سيدي.»

«هل أنت حقاً لا رغبة لك في أن تخففي من فضولي؟»

«لا... يا سيدي.»

شعر الماركيز بنقاشه معها بنوع من اللهو والتسلية، ولقد بدا الامر غير مألوف وبأن هذه الفتاة، تتحداه بالرغم من علمها بأنه سيحسن اليها بالشيء الكثير.

على كل، وبما أنه في هذه اللحظات لا يرغب في أن يظهر قوياً أمامها بسبب فقرها وضعفها، وافقها واستسلم لارادتها بطيبة خاطر.

ثم قال: «حسناً، افعلي ما يحلو لك، خذي ما تريدينه واذهبي، لكن لا تتأخري بالعودة، وإلا سأعتقد بأنك فررت بمالي.»

«كان عليك أن تدرك أنه من الخطأ أن تدفع مسبقاً.»

ابتسم لها بالرغم من دهشته لهذه الاجابة الذكية.

جاءت بكيس ورقي ووضعت بداخله اللحم المتبقي ثم قالت: «شكراً جزيلاً لك يا سيدي.»

بعد ذلك وكأنها تذكرت واجباتها نحوه أضافت: «عليك أن ترتاح بعد ظهر هذا اليوم، ومن الأفضل لو أنك تنام قليلاً.»

«هل تأمرينني لأن أفعل ذلك؟»

«بالطبع! لقد وضعتني بنفسك في هذا العمل كي أقوم بتمريضك. لذا يتوجب عليّ يا سيدي أن أقول لك ما هو الشيء الاصح لك لتقوم به.»

«هل تتوقعين مني أن أمتثل لمثل هذه الأوامر؟»

«أعرف أنه من غير المستحب أن يفرض عليك أحد شيئاً لا ترغب بالقيام به، لكن اعتبر ما قلته لك يا سيدي نصيحة تسدى إليك.»

فقال الماركيز: «هذا ذكاء شديد منك يا جيسيلدا، لكنك تعرفين كما أعرف أنا، بأن الفئران تلهو متى غاب الهر، لذا إذا كانت صحتي تهمك، اقترح عليك أن لا تغيبي كثيراً.»

«سأعود حالما أحصل على المرهم يا سيدي.»

ودعته جيسيلدا بعد ذلك باحترام وخرجت من الغرفة.

راقب الماركيز خروجها ثم تناول كوب ماء وأخذ يرشف منه مفكراً.

لأول مرة في هذا العالم، وجد لنفسه شيئاً يسليه أثناء علاج ساقه.

لقد كان رجلاً تملؤه الحركة والنشاط، وقد قضى العشرة

أعوام الماضية اما في ساحة المعركة أو في ممارسة الرياضة، وها هو منذ عام تقريباً عاجز عن الحركة بسبب الجرح البليغ في ساقه.

كان مستاء كل الاستياء من حالته هذه التي اقعدته في الفراش، فبنظره هذا ضعف يحتقره لنفسه، لكنه حارب هذا الضعف بإرادة وعزم وكأنه عدو لدود يجب أن يقضي عليه قبل أن يقضي هو عليه.

إذاً، ليس من سبب يجبره كي يقضي أوقاته بمفرده.

فمنتجع شلتنهام يغص بالناس الذين يعرفون مكانته الرفيعة في المجتمع وبضباط خدموا تحت لوائه لفترة طويلة.

لقد كانوا فيما مضى يسرهم جداً زيارته في منزله ويسرون أكثر عندما يرد لهم زياراتهم.

لكن الماركيز لم يكن في حالة صحية سيئة فقط، بل كان أيضاً رجلاً سيء الطبع. لقد كان كذلك رجلاً بارزاً ومهماً، أما الآن فهو يكره ويشمئز من هذا الوضع الغير الصحي الذي اجبره على القعود في السرير.

بالحديث عن حياته الشخصية، نجد أن ما من شيء كان يثيره في المجتمع الذي يعيشه والذي يعتبره مملاً للغاية، لكن الآن، وبصورة غير متوقعة وجد بمحض الصدفة امرأة بإمكانها أن تسليه خاصة بعدما اكتشف أنها تخفي شيئاً غامضاً.

ما يشعر تجاه جيسيلدا ليس فقط بداعي الشفقة عليها بسبب سوء التغذية التي تعاني منها، إنما أيضاً لأنها كانت تثير اهتمامه كشخص غامض.

ولكم تساءل، كيف من الممكن أن تكون امرأة مثقفة يدل مظهرها على أنها من عائلة محترمة، أن تصل بها الأحوال إلى الجوع المميت؟

ليست وحدها فقط، إنما والدتها وشقيقها الاصغر أيضاً.

كيف تدهورت بهم الحال إلى درجة الفقر الشديد؟ فلو أن موت والدها جلب لهم أزمة مادية، ألم يكن لديهم أقرباء يلجأون إليهم ليقدموا لهم على الأقل كوخاً صغيراً يأويهم؟

ظل في السرير ولم يستسلم للنوم كما طلبت منه جيسيلدا، بل أخذ يفكر بها ويتساءل كيف بإمكانه أن يقنعها بالتكلم عن نفسها.

لكنه وبالرغم من أنه ضحك على نفسه لاهتمامه الزائد بها.

امضى فترة بعد الظهر وهو يشعر بالفضول لمعرفة قصة حياتها.

عندما بدأت الشكوك تخامره لعدم عودة جيسيلدا، فتح الباب فجأة ودخلت منه.

لقد بدلت ثوبها وقد لاحظ ذلك على الفور، ولاحظ أيضاً أنه مثل الثوب السابق لا يتماشى مع الموضة الحديثة.

كانت تحمل شالا في يد وسلة في اليد الاخرى.

قالت له: «آسفة يا سيدي لتغيبي الطويل، لكن كان علي أن أشتري المواد التي ستحتاجها والدتي لتركب المرهم الذي يستغرق تحضيره بعض الوقت. على أية حال، إنه بحوزتي الآن، وأنا أكيدة بأنك ستشعر بالراحة حالاً بعد أن تضعه على ساقك.»

«هكذا إذاً، وأنا الذي تساءلت ما الذي أخرّك.»

فقالت له: «لقد أحضرت لك المرهم، فهل تسمح لي بالعودة إلى منزلي؟ إلا إذا كنت تحتاج إلي لأمر آخر.»

«أريدك أن تتناولي طعام العشاء معي.»

سألته جيسيلدا بهدوء بعد لحظة تفكير: «هل من الضروري أن أفعل ذلك؟ لقد قدمت لي طعام الغداء وأنا شاكرة لك، خاصة بعد أن علمت أنك عادة لا تأكل كثيراً عند الظهر، فهذا كرم منك لن أنساه.»

مع أنها كانت تتكلم بامتنان، شعر الماركيز بأنها مستاءة بعض الشيء من كرمه لأن ذلك يتنافى مع كرامتها.

فقال لها: «ستتناولين العشاء معي إن كنت تشعرين بالجوع أو لا، لقد سئمت من تناول الطعام بمفردي.»

«هل تسمح لي يا سيدي أن أشير لك بأن هناك العديد من أصدقائك في هذا المنتجع ممن يناسبوك أكثر مني؟»

سألها الماركيز: «هل عدت إلى مناقشتي؟»

«أخشى أن أقول لك نعم، فقد اعتقدت أنك لن تحتاج إلى خدماتي حتى وقت متأخر.»

«هل أنت على موعد ما، ربما مع خطيبك؟»

«لست على موعد، كما أنني لست مخطوبة.»

«هل تتوقعين مني أن أصدق بأنك متحمسة للعودة إلى والدتك وشقيقك؟»

خيم صمت قصير لم تجب جيسيلدا خلاله، فقال الماركيز بحدة: «لقد سألتك سؤالاً وأريد منك الاجابة عليه.»

أجابت جيسيلدا عند ذلك: «أعتقد يا سيدي أنك ستفهم

قولي هذا، فأنا ما زلت خادمة حتى لو أوكلتني بمعالجتك.»

فقال الماركيز: «وكخادمة عليك أن تتعلمي القيام بما يطلب منك. فلو أنني غريب الاطوار عندما أرغب بأن يشاركني أحد الخدم العشاء، لا أرى من سبب يدعوهم لعدم الاذعان إلى أوامري.»

«نعم يا سيدي، لكن عليك أن تعترف بأن ذلك أمر غير اعتيادي.»

أجابها الماركيز: «ومن أين لك أن تعرفي بأن ذلك أمراً غير اعتيادي بالنسبة لي؟ أنا لا أعرف شيئاً عنك يا جيسيلدا كما أنت لا تعرفين شيئاً عني. لقد التقينا اليوم لأول مرة ومن دون شك لم تعرفي بأمر وجودي إلا البارحة.»

«بالطبع أنا...»

توقفت جيسيلدا فجأة عن متابعة كلامها، فنظر الماركيز إليها بحدة، ثم قال: «أكملي الجملة التي بدأت بها.»

لكن جيسيلدا لم تجب.

«لقد كنت على وشك أن تقولي بأنك بالطبع سمعت عني، فكيف ذلك؟»

لم تجب جيسيلدا في الحال وبما أن الاجابة كانت امراً لا بد منه، قالت على نحو متقطع: «انك... رجل معروف. وأعتقد أن الجميع سمع عنك...»

أدرك الماركيز أنه لم يكن في اجابتها الحقيقة الكاملة، لكنه لم يضغط على هذا الامر أكثر.

«حسناً، فأنا حقاً رجل معروف، لكن هل هو سبب يمنعك من أن تتناولي طعام العشاء معي؟»

وضعت جيسيلدا السلة على الطاولة ثم قالت: «الذي

أحاول قوله يا سيدي، بما أنني خادمتك قد يكون من الخطأ أن أعتبر نفسي بمركز آخر وأتعشى معك.»

«هل شعرت بأنني أعتبرك بمركز آخر؟»

«لا يا سيدي... ليس تماماً... ولكن...»

قاطعها الماركيز قائلاً: «دعيني أوضح الأمر جيداً، لا نية لي في أن أتبع التقاليد المتبعة، أو القوانين المتبعة عادة بين خدم المنزل، بمعنى آخر، أنني لو قررت دعوة الخادم الذي اختصاصه غسل الاطباق في المطبخ، لا أرى من سبب يدعوه لأن يرفض ذلك، مع العلم أنه قد يكره هذا الامر كما أنت بالذات.»

وتابع قائلاً: «لكن عندما يعود الامر إليك، فلك مرتبة مختلفة. أنت هنا لمساعدتي شخصياً في تمريضي أو حتى في مشاركتي الطعام.»

تكلم بحدة الرجل المتسلط، وتابع بعد أن التقط أنفاسه: «الامر عائد لي وحدي وليس لأي شخص آخر. عندما اختار شيئاً فأنا أختار ما أرغب حقاً بالقيام به، ولا أرى لماذا من هم في خدمتي قد يعارضونني.»

قالت: «حسناً يا سيدي، لو سمحت لي الآن أن استدعي خادمك الخاص ليأتي بالماء الساخن ولأشرف على معالجة ساقك.»

تركت جيسيلدا الغرفة وعندما أصبح بمفرده أخذ يضحك بملء فيه.

لقد توصل أخيراً إلى طريقة للتداول معها دون أن تعارضه.

عادت جيسيلدا إلى الغرفة برفقة خادم الماركيز الخاص

باتلي وكانت قد أفهمته جيداً الطريقة الاصح لازالة الضمادة عن ساقه.

تألم الماركيز قليلاً هذه المرة بينما أخذ باتلي يزيل الضمادة وجيسيلدا تعطي له ملاحظاتها.

ففي ذلك الوقت من الزمان، لم يكن هناك ممرضات بل ممرضين.

فسألها: «من أين لك هذه الخبرة بالتمريض؟»

شعر الماركيز بعد أن طرح هذا السؤال وكأنه يحقق معها بأمر قد يجعل جيسيلدا تتجنب الاجابة عليه.

لكنها أجابت: «لقد اضطريت فيما مضى على القيام بمثل هذا العمل.»

«لعائلتك؟»

لم تجب على هذا السؤال وبعدما انتهى خادمه الخاص من هذا العمل، خرج من الغرفة، فتقدمت من السرير لتغطي الماركيز بالغطاء القطني.

فقال الماركيز: «إنني انتظر جوابك يا جيسيلدا.»

ابتسمت له ابتسامة غامضة وقالت: «اعتقد يا سيدي أنه من الافضل أن نتكلم بأمور مسلية أكثر. على فكرة، هل تعلم أن لورد ويلنغتون آتٍ ليفتتح قاعة الاجتماعات؟»

هتف الماركيز قائلاً: «اللورد؟ من أخبرك بذلك؟»

«لقد شيع الخبر في كل أنحاء البلدة، ولقد جاء في السابق إلى هنا لكن ليس عندما وقعت معركة واترلو. ستضاء أنوار البلدة كافة على شرفه، كما سينصب قوس النصر ترحيباً به عند مدخل البلدة.»

فعلق الماركيز قائلاً: «لقد شاهدت العديد من أقواس

النصر في حياتي، لكنني أريد أن أرى قوس النصر الخاص باللورد.»

«سينزل ضيفاً في منزل الكولونيل ريدلز الذي لا يبعد كثيراً عن هنا.»

فقال الماركيز: «إذاً، فهو من دون شك سيأتي لزيارتي، وأعتقد بأنك ترغبين بلقاء البطل الكبير لمعركة واترلو.»

ابتعدت جيسيلدا قليلاً وقالت: «لا، لا... لا رغبة لي في لقاء اللورد.»

نظر الماركيز اليها بدهشة وقال: «لا ترغبين برؤية اللورد؟ أعلم أن أية امرأة في بريطانيا تتمنى لو أن بإمكانها اللقاء به إذا حالفهن الحظ، فلما أنت على خلاف ذلك؟»

خيم الصمت من جديد، فقطعه الماركيز قائلاً: «من المؤكد أن بإمكانك أن تجيبي على مثل هذا السؤال البسيط. لقد سألتك يا جيسيلدا، لماذا لا ترغبين بلقاء اللورد.»

أجابت جيسيلدا: «أيمكنني أن أقول... إن لي اسبابي الخاصة؟»

فقال الماركيز بحدة: «جواب سخيف آخر لم أسمع بمثل سخافته قبل الآن. دعيني أقول لك يا جيسيلدا، أنه من السيء لصحتي أن أعامل كطفل صغير لا يمكنه أن يتحمل قول الحقيقة أمامه، لذا، فما هي الحقيقة التي تحاولين اخفاءها؟»

«أعتقد يا سيدي، بما أن طعام العشاء سيحضر بعد دقائق قليلة، أن تسمح لي بالذهاب إلى غرفتي كي أغسل يدي.»

وقبل أن يتمكن الماركيز من التفوّه بأية كلمة، أسرعت جيسيلدا بالخروج من الغرفة.

شعر بالغضب في البداية من تصرفها هذا، لكن شعوره تبدل بعد ذلك ليحل مكانه شعور باللهو والمرح.

فسأل بصوت مرتفع: «ما الذي يجعلها بمثل هذا الغموض وهذه السرية يا ترى؟»

فتح الباب في تلك الاثناء ليدخل منه خادمه الخاص باتلي. فقال له الماركيز: «هل تحمل أخباراً لي يا باتلي؟»

«نعم يا سيدي، فبعد أن تحدثت مع مسؤولة المنتجع بشأن السيدة، اكتشفت أنها لا تعرف شيئاً عنها وكما قالت لك. فلقد اسندت إليها الخدمة هنا دون أن نعرف شيئاً عن ماضيها وعن عائلتها.»

لم يغب عن الماركيز أن باتلي كان يعني بالسيدة جيسيلدا نفسها خاصة وهو الخبير في الحكم على الناس وعن أحوالهم.

فقال الماركيز بصوت عال: «يجب أن تتابع المحاولة، فهذا غريب عليك وعلي أيضاً أن لا نتمكن من معرفة شيء نريد معرفته. لقد كنت نافعاً جداً معي في البرتغال عندما اكتشفت أين يخفي التجار المواد الغذائية، هل تذكر ذلك؟»

أجاب باتلي: «لقد كان ذلك الأمر أسهل من هذا بكثير يا سيدي.»

فقال الماركيز: «سآخذ كلامك بعين الاعتبار يا باتلي.»

لقد كان باتلي ذكياً وواعياً، ويعلم الماركيز ان بامكانه الاعتماد عليها فيما يخص اعماله.

فسأله الماركيز: «أخبرني تماماً ما رأيك بجيسيلدا يا باتلي.»

أجاب باتلي: «ان الآنسة تشارت يا سيدي لهي سيدة بكل معنى الكلمة، وأجزم على ذلك. لكنها تخفي شيئاً، وهذا الشيء يقلقها ولا أفهم لماذا.»

فقال الماركيز: «هذا أمر عليك أن تكتشفه لي.»

فكر بعد أن قال ذلك، انه مهما كانت معارضة وممانعة جيسيلدا من تناول العشاء معه، فهو يتوق جداً إلى الاجتماع بها من جديد.

الفصل الثاني

«إلى اين انتِ ذاهبة؟»

استدارت جيسيلدا من حول طاولة المكتبة بعد ان تناولت عدداً من الرسائل بيد، بينما باليد الأخرى حملت بعضاً من الكتب.

ثم أجابت: «سأذهب إلى مكتب البريد أولاً يا سيدي، لأفهم ذلك الموظف الكسول هناك بأن رسائلك مهمة. الكل يشكون من اهماله في تصريف الرسائل في البلدة كلها، ولا ادري ان كنت سأتكلم معه بحدية أم بلطف.»

ابتسم الماركيز قائلاً: «اعتقد انه من الأصح أن تتكلمي معه بلطافة.»

فقالت جيسيلدا: «لا يمكن لأحد ان يتأكد من افكار ذلك الرجل.»

سألها الماركيز بعد ان نظر إلى الكتب التي حملتها: «وهل ستعيدين هذه الكتب إلى المكتبة؟»

اجابت بنبرة قلقة: «سأحاول ان اجد لك كتباً اكثر ثقافة، لكنك يا سيدي، رجل يصعب ارضاءه بالرغم من ان مكتبة وليم هي من افضل المكتبات في هذه البلدة، لكنني سأسعى جهدي كي أجد شيئاً لك.»

لم يجب الماركيز لأنه كان يتمتع بالانتقاد الأدبي الذي تقرأه له جيسيلدا في الكتب وذلك كي يسمع رأيها في مختلف المواضيع التي يتحدثون بها.

فلقد دهش عندما وجد ان شابة في مثل سنها ليس لها فقط رأيها الخاص بها في كل الأمور بما فيها السياسة، بل أيضاً يمكنها ان تثبت آراءها من كتب أخرى كانت قد قرأتها في هذا الموضوع وكانا يتناقشان بحدة في بعض الاوقات.

وعندما يصبح الماركيز بمفرده مساء، يراجع كل ما دار بينه وبينها من نقاش في رأسه، ليجد بدهشة ان جيسيلدا تملك معلومات افضل حتى منه هو بالذات.

لقد لاحظ وبعد مرور اسبوع على خدمته، وبعد ان اصحبت تتناول وجبتان مغذيتان في اليوم، بأنها ما عادت تبدو بذلك النحول، كما انه عاد لوجهها لونه الطبيعي.

لكنه كان يدرك في الوقت نفسه بأن عليها ان تقطع شوطاً كبيراً قبل ان يعود وزنها إلى طبيعته، مع انها اكدت له بأنها طوال حياتها كانت بهذا الضعف والنحول.

اما الصعوبات التي كان يواجهها معها، فهي انها كانت ترفض منه كل شيء عدا الأجر المتفق عليه.

انما الذي كان يعزيه، انه ومن اليوم الثاني لخدمتها له، كان يطلب وجبات كبيرة كي تأخذ ما تبقى منها لوالدتها ولشقيقها الأصغر سناً.

لكنه في احدى المرات واجه ما يسميه بكبريائها العنيد، فعندما انتهيا من تناول طعام الغداء، كان قد بقي دجاجة كاملة وحمام مشوي وبعض من المأكولات الأخرى.

فقال بعدم اكتراث: «هيا وضبي ما تبقى من طعام في الكيس.»

نظرت جيسيلدا إلى الطعام ثم قالت: «لا يمكنني ان افعل ذلك يا سيدي.»

فسألها بحدة: «ولما لا؟»

«لأنني اعتقد بأنك طلبت طعاماً اضافياً لم يكن ضرورياً، اما ما بقي منه دون ان يلمس، فيمكن تناوله في وجبة أخرى.»

فسألها الماركيز: «هل تحاولين القول بانك لن تقبلي هذا الطعام خاصة وانت تعلمين بأن عائلتك بأمس الحاجة إليه؟»

«قد نكون فقراء يا سيدي، لكن لنا كرامتنا وعزة نفسنا.»

فقال الماركيز بمرارة: «لا يمكن للفقراء تحمل الكرامة طويلاً.»

اردفت جيسيلدا: «اذا وصلوا إلى هذه الحالة، هذا يعني بانهم خسروا طباعهم وانفسهم، ويمكن ان يشبهوا بالحيوانات.»

توقفت قليلاً لتتابع بعد ذلك بجرأة: «انني شاكرة عطفك يا سيدي، لكنني لن اقبل منك هذا الاحسان.»

تمتم الماركيز بنفاد صبر، ثم انحنى قليلاً وسحب فخذا من الدجاجة.

ثم سألها: «ايمكنك قبوله الآن؟»

«سأقبلها الآن لأنني اعرف بأن الطباخ اما سيرميها للكلب أو في سلة المهملات يا سيدي، لكنني لن اقبل ذلك في مرة أخرى.»

فقال الماركيز بحدة عاصفة: «انك المرأة الأكثر عنداً وغباء التي لم التقِ بمثلها في حياتي!»

وضعت الدجاجة في الكيس دون ان تتكلم وتركت الحمام والمأكولات الأخرى.

تعلم الماركيز مع مرور الايام ان ينتبه في معاملته لجيسيلدا، والا قد تجلب كرامتها التي تتمسك بها عوائقاً لن يمكنه تخطيها.

اما ما كان يثيره في امرها اكثر، انه بالرغم من محاولاته العديدة ليكشف سرها، مازال لا يعرف عنها شيئاً اكثر مما عرفه في اليوم الأول لعملها معه.

لكن امراً واحداً كان واضحاً، فباشرافها على معالجة ساقه الجريحة، اخذت هذه الساق تتماثل للشفاء على عكس معالجة الجراح السيد نيول لها.

ثم قالت له: «عليك ان ترتاح اثناء غيابي، وارجوك ان لا تنهض من السرير كما حاولت البارحة، فانت تعلم ما قاله لك السيد نيول.»

صرخ الماركيز بانزعاج: «ارفض رفضاً قاطعاً ان اعامل كالأطفال منك ومن هؤلاء الأطباء.»

قال ذلك مع انه كان يعلم بأن ما قاله الجراح السيد نيول هو منطقي جداً.

فقد قال له الجراح وقتها: «لقد تحسنت ساقك يا سيدي كثيراً واكثر مما كنت اتوقع. لكن كي اتمكن من اخراج تلك الشظية، عليّ ان اعمل بروية وحذر.»

اجاب الماركيز باشمئزاز: «انني لم انسَ ذلك!»

فتابع الجراح: «ساكون صريحاً معك، فبعد ان عاينت ساقك، اتضح لي بأنها مصابة بالتهاب شديد، تأكدت انه قد يضطرني الأمر لبترها، لكن في الوقت نفسه قد يحصل ما ليس بالحسبان، ولا أحد يعلم.»

فسأله الماركيز: «متى حسب تقديرك يمكنني ان اغادر السرير؟»

«ليس قبل اسبوع على الأقل يا سيدي، فكما تعرف، اية حركة منك في هذه الاثناء قد تعيد النزيف إلى ساقك، فاطلب منك ان تتحلى بالصبر.»

فعلق الماركيز قائلاً: «قوة احتمال لم اعرفها من قبل.»

اجاب الجراح نيول: «اذاً يا سيدي، هذا أمر عليك ان تتعلمه الآن.»

ثم وبعد ان التقى الجراح نيول بجيسيلدا قال: «اذا كنت ستحتاجين في المستقبل إلى العمل في مهنة التمريض يا آنسة تشارت، فلدي المئات من المرضى ستجدينهم ينتظرونك.»

فقال الماركيز: «يبدو انك منشغل تماماً.»

«نعم يا سيدي، كما انهم ليسوا جرحى حرب كما انت يا سيدي، بل مرضى يأتون حتى من سكوتلندا للمعالجة، واحياناً اتساءل كيف سأتمكن من ان استقبلهم جميعاً.»

ابتسم الماركيز قائلاً: «هناك جزاء يرتبط بكل شيء، حتى لاصحاب السمعة الشهيرة.»

فقال الجراح نيول قبل ان يغادر الغرفة: «هذا شيء لا بد وانك اكتشفته بنفسك يا سيدي.»

قالت جيسيلدا الآن وقد اعادت الماركيز إلى الوقت الحاضر: «اذا تحركت فسوف تفسد الضمادة، كما انك لو فعلت ذلك فسأكون غاضبة جداً منك.»

توقفت قليلاً مفكرة ثم تابعت: «ان والدتي تركب المزيد من هذا المرهم، ويجب ان احضره لك.»

فقال الماركيز: «ادين لك للمرهم الجديد الذي تركبه والدتك، فكم كلف؟»

اجابت جيسيلدا: «ثلاث بنسات ونصف البنس.»

«اعتقد انك تريدين مني المبلغ على التمام، الا اذا قبلت اربع بنسات.»

«املك الفكة لذلك.» قالت جيسيلدا بعينين مشعتين. لقد كانت تعلم حق العلم بانه يمازحها وليس جاداً بكلامه، لأنها عادة كانت ترفض قبول مالاً غير الذي تستحقه فعلاً.

فقال لها بينما كانت تتوجه إلى الباب: «انك تثيرين اعصابي.»

اجابت: «هذا شيء يمنحك التفكير به اثناء غيابي. كما ان باتلي ينتظر ان تقرع له الجرس عندما تحتاج إليه.»

خرجت جيسيلدا من الغرفة تاركة الماركيز يغرق بأمور قد يتساءل حولها لمئة مرة وهي من عساها تكون ولماذا لا تخبره عن نفسها.

انه لم يكن يتوقع ان فتاة في التاسعة عشر من عمرها أي بعمر جيسيلدا، تملك مثل هذه الثقة الكبيرة بالنفس عندما تخاطبه، مع انه يعرف انها في نفس الوقت خجولة وحساسة.

ففيها نوعية خاصة لم يجدها بأية امرأة أخرى، والذي كان يعجبه فيها اكثر من أي شيء آخر، هو صفاءها وهدوءها.

انه عندما لا يحدثها تجلس بهدوء عند النافذة تقرأ في كتاب ولا تقوم بأية حركة كي تلفت انتباهه.

لقد كانت جيسيلدا طبيعية جداً بتصرفاتها معه وكأنه شقيقها أو اذا صح التعبير والدها، وكانت تكلمه بصراحة في كل موضوع إلا عن نفسها.

وعد الماركيز نفسه: «سأعرف كل ما تخفينه حتى لو كان ذلك آخر شيء يمكنني أن اقوم به.»

فتح الباب فجأة في تلك الأثناء واطل منه رأس لرجل يقول بصوت عميق: «هل انت مستيقظ؟»

التفت الماركيز نحو مصدر الصوت ثم هتف قائلاً بعد ان تعرف على الرجل: «فيتز! ادخل، انني سعيد لرؤيتك!»

فقال الكولونيل بركلي وهو يدخل الغرفة: «آمل ان تكون حقاً كذلك.»

تابع الماركيز يقول: «لا تبدو عليك الصحة الجيدة، على فكرة، كيف جيادك؟»

أجاب الكولونيل بيركلي: «تنتظرك، انني املك الآن ستين جواداً من الطراز الأول ومستعدة للذهاب إلى الصيد.»

فقال الماركيز: «انه حقاً طلب شديد كي اشفى بسرعة.»

«هل انت افضل الآن؟»

«افضل بكثير، فالطبيب نيول رجل طيب.»

«لقد قلت لك انه كذلك.»

«كنت على حق في ذلك، وانا ممنون جداً لك لأنني اخذت بنصيحتك وجئت إلى شلتنهام.»

ابتسم الكولونيل بركلي قائلاً: «هذا ما اردت ان اسمعه منك، وكما قلت لك سابقاً، فهذه البلدة فريدة من نوعها!»

كان في نبرة صوته فخر واعتزاز ببلدته مما دعا الماركيز أن يضحك قائلاً: «متى ستسميها بلدة بركلي، أو ليس هذا ما يجب ان تدعوها؟»

أجاب الكولونيل بركلي: «لقد فكرت حقاً بذلك، لكن وبما ان شلتنهام من اصل ساكسوني، قد يكون من الخطأ استبدال الاسم.»

«ما الذي جاء بك إلى هنا؟ كنت اعتقد انه يصعب عليك مغادرة القصر.»

«لقد استدعيت للاجتماع كي نخطط لاستقبال اللورد ويلينغتون، هل سمعت بقدومه إلى هنا؟»

«نعم، لقد قيل لي، هل هذا صحيح؟»

«بالطبع هذا صحيح! وإلى اين غير شلتنهام قد يجيء اللورد؟»

فسأل الماركيز ساخراً: «إلى اين بالفعل؟»

«سيقيم مع ريديل في مجمع كامباري الذي سيتبدل اسمه إلى مجمع ويلينغتون اكراماً له، كما انني ساطلب منه ان يفتتح قاعة الاجتماعات، وان يزرع شجرة سنديان جديدة، وكذلك ان يفتتح المسرح.»

تابع الماركيز يقول بسخرية: «انها برامج مبهجة ومسرة في الواقع.»

اجاب الكولونيل بركلي: «انني لا استطيع ان افكر بأمور أخرى، على فكرة، سترافقه زوجته!»

«لذا على الجميع ان يحسنوا التصرف.»

«بالطبع، لكن باستثنائي انا، فأنت تعلم انه لا يمكنني قطعاً ان احسن التصرف.»

فقال الماركيز: «هذا صحيح، فما هي اخبارك الأخيرة يا فيتز؟»

اجاب الكولونيل بركلي: «لقد عثرت على انكى امرأة في العالم.»

«من تكون؟»

قال الكولونيل بركلي: «اسمها ماريا فوت، ولقد التقيت بها العام الماضي.»

فسأل الماركيز: «وماذا حدث بعد ذلك؟»

أجاب الكولونيل بركلي: «لقد كانت لبعض الوقت مراوغة.»

«ولكن الآن؟»

«انها أفضل وتسكن في احدى منازلي.»

«في هذه الحالة، لن تسهر معي الليلة.»

«لا، سأسهر مع ماريا هذه الليلة، وعليّ ان اعود إلى القصر في صباح اليوم التالي، لكنني قد اعود في نهاية هذا الاسبوع. هل تشعر بالضجر؟»

اجاب الماركيز بامتنان: «لا، لا اشعر بذلك. كما ان نيول يأمل بأنني قد اغادر السرير بعد اسبوع أو اكثر بقليل.»

فقال الكولونيل بركلي: «يجب ان تحضر افتتاح قاعة الاجتماعات، وسيسعدني عندما تتعافى ان تأتي إلى المسرح لتشاهدني امثل رواية جديدة اعلم جيداً بأنها ستروق لك، لقد كتبها شاب اضع امالي المستقبلية فيه.»

كان الماركيز يعلم ان من بين هوايات الكولونيل بركلي المتعددة، هواية التمثيل التي يفضلها.

كما ان له فريقاً من الممثلين الهواة، وكل شهر أو نحوه،

يقدمون مسرحية في مسرح الرويال امام جمهور يأتي لمشاهدتهم وعلى وجه الأخص ليروا جدارة الكولونيل بركلي في فن التمثيل.

لكن بالرغم من كل ذلك، كان الكولونيل يجد بأن الهواة لا يفونه بالغرض ويفضل التمثيل امام ممثلين محترفين مثل جون كمبل والسيدة سيدونز.

اجاب الماركيز: «يسعدني ان اشاهد المسرحية وان اصفق، بالمناسبة ما عنوان هذه المسرحية؟»

قال الكولونيل بركلي: «عنوانها الساذج المقنع، هل تجد هذا العنوان جميل؟»

«وانت تقوم بدور البطل فيها؟»

«لا، بالطبع لا! انا اقوم بدور الساذج، وأي دور آخر قد امثله عندما المسرحية تتعلق بفتاة جميلة وساحرة؟»

رمى الماركيز برأسه فوق الوسادة ضاحكاً ثم قال: «فيتز! انك حقاً فاسد الأخلاق ولا من سبيل إلى تغييرك! وكأنما لا يكفي ما يثرثون حولك الناس في حياتك العادية.»

فقال الكولونيل بركلي: «احبهم ان يتكلموا، فهذا ما يجعلهم يأتون الى شلتنهام لصرف اموالهم ببذخ، مما يجعلني افكر حيث ان البلدة صغيرة جداً، ان ابني منازل جديدة، وابنية عالية وكذلك ان اوسع الطرقات التي تؤدي إلى هذا المنتجع.»

كان البناء أيضاً هواية أخرى للكولونيل، فتابع يقول بعد قليل: «لقد شاهدت عند مجيئي اليك فتاة جميلة تخرج من هذا القسم، وعندما سألت الخادم العجوز عنها، قال لي بأنها تقوم على تمريضك.»

أجاب الماركيز: «أجل، انني لم اجد في باتلي خبرة تلك الفتاة في تضميد الجراح وتطهيرها، حتى ان الطبيب الجراح نيول يثني على براعتها. انها والحق يقال سيدة محترمة، ولقد علمت بأن عائلتها مرت بظروف مادية صعبة.»

فقال الكولونيل متأملاً: «اعتقد انها جذابة مع انني القيت عليها نظرة سريعة.»

اسرع الماركيز يقول بحزم: «ابتعد عن هذا الأمر يا فيتز!»

اجاب الكولونيل بركلي: «طبعاً طبعاً، لكنني مندهش، فأنا اذكر انك قلت لي مرة بأنك لا تجد شيئاً ممتعاً في خدمك أو في خدم الآخرين.»

«وسيبقى ذلك حقيقة، ولن اسمح لك بالتكلم مع أحد يخصني.»

فسأله الكولونيل بركلي بدهشة: «هل هذا تحدٍ منك؟»

اجاب الماركيز: «حاول وسترى كيف سأدق عنقك، قد اكون مريضاً ولا اقوى على السير في الوقت الحاضر، لكنك تعلم كما اعلم يا فيتز، كم انني بارع في الملاكمة خاصة بعد ان اتعافى.»

توقف الماركيز عن الكلام ليضحك بملء فيه ثم تابع يقول: «اننا نتكلم بجدية مبالغ فيها، لكنني اطلب منك ان تترك جيسيلدا وشأنها، فهي لم يسبق لها ان تعرفت بشخص مثلك، كما انني لا اريد ان تفسد اخلاقها.»

لكن وفي الوقت نفسه، وبما انهما صديقان قديمان ويعرفان بعضهما جيداً، فكر الماركيز بأن جيسيلدا ستكون

بأمان ما دامت ستبقى تحت رعايته، وتساءل بينه وبين نفسه فيما لو عندما يتعافى قد توافق جيسيلدا على ان تعود معه إلى دياره، لكنه كان متأكداً دون ان يسألها بأنها سترفض منه ذلك رفضاً قاطعاً.

وشعر مرة أخرى بالاحباط لأنه لا يعرف سوى القليل عنها.

كيف يمكن لعائلتها ان تكون بهذا الفقر؟ ولماذا لا تتكلم ابداً عن والدتها وعن شقيقها الاصغر؟

هذا أمر غير طبيعي. فكر الماركيز وقد عقد العزم على ان يجبرها على الكلام.

عادت جيسيلدا بعد مضي ساعة من الوقت بينما كان الماركيز يراقب عقارب الساعة بنفاد صبر.

فقال بحنق عندما شاهدها: «لقد تأخرت كثيراً.»

اجابت جيسيلدا: «هناك ازدحام شديد في السوق، خاصة مكتبة ويليام.»

ضحكت بعد ذلك ثم تابعت: «تمنيت لو بامكانك ان تشاهد الناس تقف صفوفاً طويلة لاجل ان تزن نفسها فوق آلة الوزن.»

فسألها الماركيز: «آلة الوزن؟»

«نعم، كل المشاهير، بل كل من يأتي إلى شلتنهام يجرب هذه الآلة، فالبدناء يأملون من المياه المعدنية ان تخفف وزنهم، والنحيلون مقتنعون بأن وزنهم سيزيد في مثل هذا المنتجع.»

تابع الماركيز يسألها: «هل وزنت نفسك؟»

«لن اضيع قرشي على مثل هذه السخافات!»

«انني متأكد بانك ستجدين وزنك قد اختلف عن الاسبوع الماضي.»

ابتسمت جيسيلدا وقالت: «اعترف بأن ثيابي قد ضاقت بعض الشيء. هذه كتبك. وانا اكيدة بانها ستعجبك، على الأقل هذا ما آمله، وكي اكون صريحة معك، لقد اخترت تلك الكتب التي ارغب انا في قراءتها.»

«ويفترض مني ان اكون شاكر لك.»

«يمكنني ان استبدلها اذا شئت.»

ثم تحولت نحو الباب، فسألها الماركيز: «إلى اين انت ذاهبة؟»

«انني ذاهبة لأغسل يدي، وعندما اعود سأقرأ لك الجريدة اذا كنت تشعر بالكسل من قراءتها بنفسك!»

اجابها الماركيز بحدة: «ستفعلين ما سأقوله لك؟»

كانت اثناء قوله هذا قد خرجت واغلقت الباب وراءها، فلم يكن متأكداً فيما لو سمعت تعليقه الأخير أو لا.

* * *

تأخرت جيسيلدا في الوصول اليه في اليوم التالي، وهذا بحد ذاته كان امراً غير عادي، واكثر من ذلك، انها حالما ظهرت، ادرك الماركيز رأساً بان هناك شيئاً مشؤوماً قد حدث.

كان قد اعتاد ان يرى كل صباح ابتسامتها تضفي مرحاً على صوتها حين تتكلم كلاماً لا وقاحة فيه بل ممازحة بروح طيبة.

لكنها هذا الصباح كانت تبدو شاحبة وكان هناك

سواداً حول عينيها، فتأكد الماركيز انها قلقة من شيء ما.

دخل بعد ذلك خادمه الخاص باتلي ليغير الضمادة عن ساقه تحت اشرافها دون ان تتفوه بكلمة واحدة، وخرجت بعد ذلك ومعها الضمادة المستعملة مفسحة المجال لباتلي ان يساعد الماركيز في حلق ذقنه، ولم تعد إلى الغرفة الا عند انتهاء كل ذلك.

اخذ يراقبها بعين نافذة وهي ترتب الغرفة وتنسق الازهار في المزهرية، وعندما انتهت من اعمالها تلك، تقدمت منه، فادرك الماركيز بأنها قررت ان تتكلم اخيراً.

ثم قالت بصوت منخفض: «اريد ان... اسألك... شيئاً.»

سألها الماركيز: «ماذا هناك؟»

«لا اعرف... كيف سأقول ذلك.»

«يمكنني ان اكون متفهماً لو لزم الأمر.»

اجابت جيسيلدا: «اعرف ذلك، لقد اخبرني باتلي كيف انك تحل مشاكل كل من يعمل في خدمتك.»

«اذاً، دعيني احل مشاكلك.»

«قد تعتقد... بأن في ذلك غرابة.»

فقال الماركيز: «لا يمكنني ان اعتقد ذلك قبل ان اعرف ماذا هناك.»

وقفت ساكنة امامه فأحس بمدى قلقها وترددها، لكنها قالت اخيراً بصوت منخفض: «لقد سمعت... ولا اعتقد بانني مخطئة، بأن هناك اناساً يساعدون الناس مادياً مقابل اعمال في الحقول... كما انني اريد... لا بل بحاجة ماسة...

لخمسين جنيهاً... ولربما بامكانك ان تجد لي... واحداً قد يمدني... بهذا المبلغ.»

عقدت الدهشة لسان الماركيز، لكن وبعد ان لاذت جيسيلدا بالصمت بعد هذا التصريح، هتف قائلاً: «هل تعرفين ما تحاولين قوله؟ واذا كنت بحاجة لخمسين جنيهاً...»

نظرت اليه للحظات قليلة بصمت، ثم تحولت بحدة نحو الباب.

اسرع يقول لها: «إلى اين انت ذاهبة؟»

«اعتقدت... انك قد تتفهم الأمر...»

وعندما اصبحت قرب الباب، صرخ الماركيز قائلاً: «تعالي إلى هنا! هل تسمعينني؟ تعالي إلى هنا في الحال!»

اعتقد في بداية الأمر انها سترفض تلبية أوامره، لكنها عادت إليه.

فقال الماركيز: «دعيني افهم الأمر اكثر، انك تريدين خمسين جنيهاً وترفضين قبولها مني؟»

اجابت جيسيلدا بحدة: «تعرف انني ارفض أخذ المال... الا اذا قدمت عملاً بالمقابل.»

كاد الماركيز ان يناقشها الأمر، لكنه ادرك انه ما من فائدة بذلك، لأنه كان يعلم ان كرامة جيسيلدا هي جزء لا يتجزأ منها، فلو الح عليها ان يمدها هو بهذا المبلغ، فهي من دون شك ستخرج من حياته ولن يعود إلى رؤيتها من جديد.

فقال لها بكياسة: «سامحيني يا جيسيلدا، لقد فاجأتني بهذا الأمر، وانا اتفهم مشاعرك حيال هذه المسألة، لكن هل فكرت ملياً قبل ان تقترحي علي بمثل هذا الاقتراح؟»

اجابت جيسيلدا: «فكرت كثيراً... كما انه الحل الوحيد الذي توصلت اليه... واعتقد انه من السهل عليك ان تجد لي... من يدفع لي.»

فقال الماركيز بهدوء: «انه امر سهل بالطبع.»

«إذاً، هل ستخدمني هذه الخدمة؟»

اجابها: «هذا يتوقف يا جيسيلدا، ولا اعتقد انني قد اكون اطلب الكثير عندما اسألك عن حاجتك لمثل هذا المبلغ الكبير وبهذه السرعة.»

مشت ببطء نحو النافذة، ثم اخذت تنظر إلى الخارج، ففهم الماركيز ان في داخلها صراع فيما لو تمنحه ثقتها بسرها الدفين أو ان ترفض الاجابة على سؤاله.

اخيراً، ولأنها كانت تدرك بأنه املها الوحيد في الحصول على المبلغ، قالت بصوت منخفض: «ان شقيقي... الذي لو كان له امل في ان يمشي من جديد... يجب ان تجرى له عملية جراحية على يدي الطبيب الجراح نيول.»

«هل جرح شقيقك ابان الحرب؟»

«لقد صدمته عربة كانت تجري بأقصى سرعة منذ شهرين، وقد داسته اقدام الجياد وداسته احدى عجلات العربة.»

«إذاً، هذا ما دعاك للقدوم إلى شلتنهام!»

«نعم.»

«ولقد انتظرت طوال هذا الوقت لتتمكني من مقابلة الطبيب الجراح نيول؟»

«نعم.»

«لماذا لم تخبريني بذلك؟»

لم تجب وعرف ما قد يكون جوابها، فهي وعائلتها لا يقبلون الاحسان من أي كان.

فقال الماركيز بعد لحظات: «لا بد وان العملية الجراحية بغاية الاهمية كي يطلب الطبيب مثل هذا المبلغ».

«انها كذلك، كما انه سيدخل رابرت مستشفاه الخاص لبضعة أيام وهذا أيضاً محسوب من ضمن الخمسين جنيهاً».

«أليس هناك من طريقة أخرى لحصولك على هذا المبلغ؟».

أدرك الماركيز انه طرح سؤالاً لا ضرورة له، فهي وعائلتها لما كانوا يعانون من الفقر الشديد لو كان لهم ايرادات أخرى.

حوّلت جيسلدا نظرها عن النافذة ونظرت إليه قائلة: «هل... ستساعدني؟».

أجاب الماركيز: «سأساعدك، لكن بالتأكيد ليس بالطريقة التي اقترحتها».

«يجب... أن أكسب المبلغ».

«اعرف ذلك جيداً».

اقتربت أكثر منه، فقرأ في عينيها الثقة، وفكر بالرغم من تجاربه الكثيرة في معالجة مشاكل الناس، بانه لم يطلب منه مرة مثل هذا الطلب الغريب.

ثم انتبه أن جيسلدا تنتظر منه جواباً فقال: «هل تمنحيني يا جيسلدا بضع ساعات من التفكير؟ لكن ألا تسمحين لي بان أمدك بالمبلغ بينما أجد لك حلاً لمشكلتك؟».

«قال الطبيب نيول ان بإمكانه أن يجري العملية الجراحية يوم الخميس».

«هذا يمنحنا يومان».

«نعم... يومان».

«كنت أفضل أكثر من هذه المدة».

«لا... يمكنني أن أنتظر أكثر».

أدرك أنها رفضت اقتراحه بمدها بالمبلغ دون أن تقول له ذلك، وتساءل لو أنه ثار عليها قد يبدل من موقفها، لكنه تراجع عن ذلك لأنه مهما ثار فهي سترفض رفضاً قاطعاً المبلغ منه.

لأن الصراع في داخل كل منهما كان قوياً، غيّر الماركيز دفة الحديث قائلاً: «ما رأيك لو تقرأين الجريدة لي؟ أريد أن أعرف ماذا يجري في العالم من حولي، وقد يمنحني ذلك فرصة كي أتكيف مع مثل هذا الطلب الذي لا يتصوره العقل».

حركت يدها بطريقة يائسة وكأنها تقول له بانه ليس لها من خيار آخر.

ثم حملت الجريدة وأخذت تقرأ له العناوين الرئيسية ومن بعدها المواضيع التي تهمه.

كان من عادة الماركيز أن ينتظر منها قراءة الجريدة، لكن هذه المرة لم يسمع كلمة واحدة من كل الذي قرأته جيسلدا.

لقد كان شارد الفكر يراجع الأمر من كافة نواحيه كي يجد طريقة تمنع جيسلدا من أن تضحي بصحتها لانقاذ شقيقها.

تأكد الماركيز من الحديث الذي دار بينه وبين جيسليدا بأنها كانت بريئة كل البراءة، ووجد نفسه لا يريد أن يتركها تغادر وتعمل بشقاء في الحقول. إنما كيف بإمكانه أن يقنعها وأن يمنعها عن ذلك.

ثم قال بينه وبين نفسه بحدة: ما الذي يمكنني أن أفعله لها؟

وعندما انتهت جيسليدا من قراءة الجريدة، لم يكن الماركيز قد توصل إلى حل يمكنه أن يقدمه لها، وبينما كانت تنظر إليه بتساؤل، دخل بالنتي إلى الغرفة قائلاً: «اعذرني يا سيدي، لكن الكابتن هنري سومركوت جاء لزيارتك ويرغب في مقابلتك في الحال.»

أنقذت هذه الزيارة المفاجئة الماركيز من الموقف الذي كان يتخبط به ولا يجد منفذاً له.

«يسعدني جداً كما تعرف يا بالنتي ان أرى الكابتن سومركوت، اطلب منه الدخول.»

وقفت جيسيلدا بيأس فأسرع الماركيز يقول: «سنتكلم في ذلك في وقت لاحق.»

«شكراً يا سيدي.»

فلمح الماركيز في وجهها قبل ان تخرج، معاناة والأم اكثر من ذي قبل.

فكر: يجب ان اجد حلاً لهذه المشكلة.

دخل الكابتن سومركوت في تلك الاثناء فهتف الماركيز قائلاً: «هنري! تسعدني رؤيتك من جديد! ما الذي جاء بك إلى شلتنهام؟»

اجاب هنري سومركوت: «ظننت انك كنت تتوقع قدومي.»

لقد كان هنري سومركوت شاب بهي الطلعة ويصغر الماركيز ببضعة سنوات، وقد خدما في نفس الفوج وحاربا جنباً إلى جنب في معركة واترلو.

كما انه تربطهما قرابة بعيدة نوعاً ما وقد عرفا بعضهما منذ نعومة اظفارهما.

ثم تابع هنري سومركوت: «لقد جئت إلى هنا لأنثر الورود والرياحين عند مرور البطل المنتصر.» وبعدما انتهى من كلامه جلس على مقعد وثير.

اجاب الماركيز: «لقد كان علي ان اتوقع انه حيث سيكون اللورد ستكون انت أيضاً.»

فقال الكابتن سومركوت الذي كان الضابط المعاون للورد ويلينغتون في معركة واترلو: «هل تخليت يوماً عن واجباتي؟ كما انه اختارني وانتدبني لأسبقه إلى الأماكن التي ستقام له فيها استقبالاً شعبياً.»

«ارجو ان لا يكون في الأمر أي ضرر.»

«آه، بالطبع لا! وافضل هذا الأمر على الاحتفالات التي تقام في الساحات والتي قد ينتج عنها مشاكل عديدة. ولكن اسمح لي ان اقول لك، بأنني لا اجد نفسي سوى في تلك الاماكن الغريبة انما المبهجة.»

فقال الماركيز: «في هذه الحال، يسعدني قدومك إلى شلتنهام.»

اجاب الكابتن سومركوت: «أول من تذكرته عندما اخبرني اللورد بأنه قادم إلى شلتنهام، هو انت وبأنني حتماً سأقابلك، هل انت افضل حالاً الآن؟»

اجاب الماركيز بثبات: «افضل بكثير!»

«هذا يريحني كثيراً. انني اذكر كيف رفضت بعناد عندما غادرت بلجيكا من ان تسمح للجراح بأن يقطع ساقك.»

فعلق الماركيز قائلاً: «كم كنت على حق حينها. فساقي الآن في حالة افضل وفي طريقها إلى الشفاء نهائياً. لكن ادين بالشكر إلى الطبيب الجراح هنا.»

قال الكابتن سومركوت بشيء من السخرية: «اعترف بانك تبدو احسن حالاً، ولكنك ستزيد وزنك لو لازمت السرير لمدة طويلة.»

اجاب الماركيز: «هذا ما يشغل تفكيري دائماً، لكنني مضطر لملازمة السرير إلى ان تلتئم جراحي.»

قال الكابتن سومركوت: «اذاً، فانت لا تشارك في الحفلات التي تقام هنا. على فكرة، كيف حال الكولونيل؟ لقد وجدت البلدة بأسرها تتحدث عنه حالما وصلت، لكن هذا أمر طبيعي بالنسبة إليه.»

اجاب الماركيز: «لقد كان فيهتز هنا هذا الصباح.»

قال سومركوت: «هل تريد ان تسمع الاخبار السيئة؟»

اجاب الماركيز: «اعرف انك لن تتمكن من كتمانها عني اكثر من ذلك، لذا، فالأفضل لي ان اسمعها حالاً منك.»

«انها حول جوليوس.»

امتعض الماركيز قائلاً: «توقعت ذلك، فما هي آخر اخباره؟»

«يسبب لنفسه سخرية هذه الايام اكثر من العادة.»

فقال الماركيز بانزعاج: «ما هذا الشاب الغبي! اتوقع انه غارق في الديون مرة أخرى! لقد قلت له آخر مرة دفعت عنه ديونه، بأنها ستكون المرة الأخيرة وقد كنت اعني حقاً ذلك.»

قال الكابتن سومركوت: «اعتقد انه صدقك وقتها.»

اجاب الماركيز: «من الأفضل له ان يصدق. لقد انفقت على ذلك الغبي ليس باقل من خمسة وعشرين ألف جنيهاً في السنتين الماضيتين. اشعر وكانني اضعت هذا المبلغ أو سرق مني عنوة.»

«اعلم أيضاً، انه انفق حتى اكثر من هذا المبلغ بكثير.»

«في هذه الحالة ليذهب إلى مدينة فليت. فامره لم يعد يثير اهتمامي؛ كما انني لن اكلفه مرة أخرى.»

«لا ينوي القيام بذلك.»

«ماذا يفعل الآن؟»

«يحاول الزواج من وريثة غنية.»

«وهل سيجد مثل هذه الفتاة التي قد تكون في غاية الغباء للقبول به؟»

«هذا ما اردت ان اكلمك به. لقد جعل من نفسه اضحوكة بين الجميع وهو يحاول ان يتقدم من كل فتاة ثرية ظهرت في لندن في هذا الفصل.»

لاذ الماركيز بالصمت، وما عساه يقول حيال ابن عمه الشاب جوليوس لينذ الذي لم يلحق به سوى الأذى والسوء منذ ان ورث اللقب. وبالمختصر المفيد، لقد كان شاباً مستهتراً لا نفع منه ولا تؤثر به التوبيخات اي تأثير.

لقد توفي والد جوليوس في سن مبكر بسبب مرض وراثي قضى على حياته. ولكي تعزي ارملته نفسها، اخذت تدلل جوليوس دون حساب حتى افسدت تربيته، وعندما اصبح شاباً، اخذ يثير الفضيحة تلو الأخرى حتى ثارت ثائرة الماركيز منه ومن تصرفاته التي لا تحتمل.

وبما انه كان الوريث الشرعي الماركيز، فهو لم يظهر له أي تمنيات بالشفاء بعد اصابته البالغة في معركة واترلو، بل قطب حاجبيه وتجهم وجهه عندما عرف بأنه قد يتعافى.

قطع الماركيز الصمت وقد ادرك ان هنالك المزيد، فقال: «تابع!»

اجاب هنري سومركوت: «من الطبيعي ان سمعة جوليوس السيئة كانت معروفة لدى الجميع، لذا فقد كان والد اية وريثة يطرده قبل ان يسمح له بالتعريف عن طلبه.»

نظر هنري سومركوت إلى الماركيز بحذر قبل ان يتابع: «حتى انه ركل مرة وهو يحاول التقرب من فتاة ولم يفلت من عقاب والدها الا عندما امره بتنظيف انبوب تصريف المياه.»

فقال الماركيز عند ذلك بحقد: «اشعر بالاشمئزاز عند سماع مثل هذه الاخبار!»

اجاب الكابتن سومركوت قائلاً: «عرفت انك لن تسر بها، لكنني اردت ان احذرك بأنه قادم إلى شلتنهام وربما يكون قد وصل الآن.»

فسأل الماركيز بدهشة: «قادم إلى هنا؟ لاجل ماذا؟»

«انه يلاحق الآنسة كلترباك، واعتقد انها أمله الأخير، انها فتاة بسيطة في الخامسة والثلاثون من عمرها، ولكن والدها ابنزر كلترباك، رجل في غاية الثراء.»

ثم تابع الكابتن سومركوت يقول ببطء وحذر: «انه رجل مرابي!»

«لن اسمح بدخول المرابين إلى العائلة! فعائلة ليندز ومنذ اكثر من مئة عام، لم تكن سوى عائلة محترمة.»

«كما انني سمعت، ان الآنسة كلتر باك تميل اليه وتوافق

طلبه، لأنه وبالرغم من ثرائها الفاحش، لم يتقدم احد للزواج منها، وتعتبر جوليوس بالرغم من كل الخطائه، بانه الرجل المناسب.»

اجاب الماركيز بمرارة: «بالمولد فقط وليس بحسن التصرف.»

اخذ الماركيز يفكر بهذه المشكلة الجديدة التي يجب معالجتها باقصى سرعة.

فقال وكأنما يكلم نفسه: «لو منحت جوليوس المال، فهو من المؤكد سيفي ديونه وفي الوقت نفسه سيتزوج من تلك المرأة كلتر باك اذا كانت في هذا الثراء.»

فقال هنري سومركوت متعاطفاً: «اعرف ان هذا يثير حساسيتك، وآسف لأنني كنت من حمل لك هذه الاخبار المزعجة، لكنني اعتقدت انه من الواجب ان تعرف ماذا يجري ويدور حولك.»

فاستطرد الماركيز قائلاً: «قد تجيئني اخبار اسوأ منها.»

قال الكابتن سومركوت: «لو اخذت رأيي، على احد ان يلقن جوليوس درساً قاسياً.»

اجاب الماركيز: «اوافقك، لكن لا يبدو ان ابنزير كلترباك قد يقوم بذلك.»

«بالطبع ليس هو، انه سيتمسك بهذه الفرصة الذهبية التي قد تصله بصهر ارستقراطي.»

«الأمر برمته يشبه احدى المسرحيات السخيفة التي يحب الكولونيل ان يقوم بتمثيلها عن شاب فاسد تربوياً مثل جوليوس، ووصي طليه متملق مثلك، ومرابي مثل ابنزر كلتر

لا يصدق بانه سيدخل العالم الارستقراطي يوماً.
يزاً العروس السالجة المغفلة التي وجهها مكسو
ور دون شك.»

م اخذ هنري سومركوت بالضحك من جديد، بينما كان
ركيز مقطب الجبين.

ندما انتهى هنري من ضحكته تابع يقول: «كل ما نحتاج
الآن لاتمام مثل هذه المسرحية هو العثور على البطلة
بلة المتنكرة بزي الاميرة والتي تصلح لذلك الشاب
ند كي تسدل الستارة على نهاية سعيدة.»

ستوى الماركيز في جلسته وهتف قائلاً: «هنري، لقد
ت لي بفكرة ما قد لا تحل المشكلة في وضع
يوس في مكانه المناسب، وهذا الامر لن يبعد الآنسة
باك عن العائلة فقط، بل هو ايضاً سيحل مشكلة أخرى
صعوبة».

الفصل الثالث

«اقرع الجرس يا هنري.»

«لماذا؟»

أجاب الماركيز: «سأخبرك بالفكرة التي أوحيتها إليّ، كما انني أريد أن تكون جيسيلدا بيننا.»

نهض الكابتن سومركوت من مكانه وشدّ حبل الجرس الذي إلى جانب السرير.

فتح باب الغرفة في الحال ليظهر منه الخادم بالتي.

«هل تريد شيئاً يا سيدي؟»

«احضر الآنسة تشارت إلى هنا»

«حسناً يا سيدي.»

فقال هنري سومركوت عند ذلك: «انك تثير فضولي، ان من ينظر إليك يشعر بأن هناك أمر هام وشيك الحدوث. كنت أعرف دائماً ونحن في البرتغال متى كنت تتوقع المعركة.»

ضحك الماركيز وقال: «لا أصدق أية كلمة من الذي تقوله، لكن وفي الوقت ذاته، اعترف بانني أخطط لشيء ما.»

«وهل العدو جوليوس؟»

أجاب الماركيز بغموض: «واحد منهم!»

دخلت جيسيليدا الغرفة بسرعة وهي تقول: «هل استدعيتني؟»

ظهر في عينيها التلهف والترقب والقلق الشديد، انها أمور لم يشاهدها الماركيز عليها منذ أن التقيا لأول مرة.

فقال الماركيز بهدوء: «أريدك أن تجلسي يا جيسيلدا وأن تصغي إلى ما سأقوله لك. دعيني أولاً أقدمك إلى صديق قديم، الكابتن هنري سومركوت... الآنسة جيسيلدا تشارت.»

سلّمت جيسيلدا عليه بأدب وانحنى هنري سومركوت احتراماً.

ادرك الماركيز بعدما رأى ملامح وجهها أنها تفكر بأن هنري سومركوت هو الرجل الذي اختاره الماركيز كي يدفع لها الخمسين جنيهاً التي تحتاج اليها.

فأسرع الماركيز يقول يصحح ما يجول في فكرها: «لقد جاءني الكابتن سومركوت يا جيسيلدا باخبار لا تسر عن ابن عمي جوليوس ليند وبأنه يتصرف تصرفات تسيء إلى سمعة العائلة.»

ظهرت الدهشة على ملامح جيسيلدا لكنها لم تنطق بكلمة واحدة، وتابع الماركيز: «انه في الواقع سيرث لقب الماركيز لو انني لم اتزوج، كما انني اعتبر مسؤولاً عنه وعن تصرفاته.»

فتدخل الكابتن سومركوت قائلاً: «ما من احد كان ليعامله بمثل هذا الكرم الذي عاملته به.»

تابع الماركيز يقول وكأنما هنري سومركوت لم يتكلم: «لقد بدد جوليوس ليند حتى الآن ثروة لا بأس بها. وكنت اسدد ديونه مرة بعد مرة، والآن اقول لك بصدق، ادركت انه من الميؤوس جداً ان استمر في تشجيعه على تهوره وطيشه.»

تدخل هنري سومركوت من جديد قائلاً: «المشكلة يا تالبوت، ان جوليوس يعتقد بانك منجم للذهب لا ينضب. أو

اذا صح التعبير مصرف مستودعاته وضعت دائماً تحت تصرفه.»

فقال الماركيز بحزم: «نعم، وهذا أمر لن اسمح بان يستمر.»

كانت نظرات جيسيلدا مسلطة على الماركيز الذي ادرك انها تتساءل عن مدى علاقتها بهذا الأمر.

فتابع الماركيز يقول: «لقد اخبرني هنري انه كي يتمكن جوليوس من ان يصلح من عجزه المادي، اخذ يلاحق كل وريثة ثرية في لندن، وانه الآن يلاحق واحدة هنا في شلتنهام.»

تدخل هنري سومركوت من جديد قائلاً: «يا ليتك ترى كيف تبدو، لطالما شاهدت العديد من النساء الساذجات في حياتي، ولا اشك مطلقاً لو انه اقيم مباراة للقبيحات، من ان الآنسة كلثر باك لن تفوز بها!»

ابتسمت جيسيلدا وظهر عليها الارتياح لأول مرة منذ دخولها إلى الغرفة.

ثم قال يتساءل: «كلثر باك؟ يا له من اسم غريب!»

فقال الماركيز بصوت اجش: «انها ابنة ابنزر كلثر باك المرابي الذي يقرض الناس لقاء فائدة معينة.»

ثم شد على غطاء السرير بيده بعصبية بالغة وتابع يقول: «لقد قلتها وسأقولها مرة ثانية، لن اسمح بدخول عائلة كلثر باك إلى عائلتي، كما لن اسمح برجل مرابي يجلس إلى مائدتي.»

فسألت جيسيلدا بهدوء: «وما الذي ستفعله لمنع ذلك؟»

اجاب الماركيز بعصبية: «لا تثرثري! انني احاول ان اشرح دورك في هذه المسرحية.»

تساءلت جيسيلدا: «دوري؟»

اجاب الماركيز: «نعم دورك. اعتقد انه يمكنك التمثيل».

أظهرت جيسيلدا الدهشة والتعجب، حتى ان هنري سومركوت التفت نحو الماركيز بتساؤل شديد.

فتابع يقول باشمئزاز مقيت: «انني عازم على تلقين جوليوس درساً لن ينساه طوال حياته. واكون ايضاً قد حللت مشكلتك يا جيسيلدا التي اطلعتني عليها قبل الآن».

نظرت اليه بعينين واسعتين بينما تابع هو: «الطريقة الوحيدة لانقاذ جوليوس من الآنسة كلتربك، هي في ان تنتبه حواسه إلى وريثة اخرى، والتي يجب ان تكون أيضاً ثرية وجذابة في الوقت نفسه».

خيم الصمت في ارجاء الغرفة لفترة وجيزة لتقطعه جيسيلدا بعد ذلك قائلة بتردد: «لا اعتقد... انني افهم... ماذا تقصده».

«اقصد بانك ستكونين انت الوريثة التي ستمنع جوليوس من ملاحقة الآنسة كلتربك».

ثم التفت الماركيز إلى الكابتن سومركوت وتابع يقول: «انت يا هنري ستكون من يخبر جوليوس بمدى ثراء واهمية هذه الوريثة وبانها من الشمال من يوركشاير، وحسب معلوماتي، فان جوليوس لم يذهب مرة إلى هناك».

بدأت جيسيلدا تقول: «لكن... مثل هذه الفكرة... غير ممكنة...»

قاطعها الماركيز قائلاً: «لا وجود لأمور غير ممكنة في قاموسي. واكثر زائري سلتنهام يجيئون من الأماكن البعيدة

وقد اخبرني بذلك نيول في حضورك. لذا فستكون هذه الوريثة الثرية واحدة من المئات من الناس الذين سيراجعون الاطباء وسيشربون من المياه المعدنية الشافية».

نهض هنري سومركوت من مكانه قائلاً: «انك يا تالبوت عبقري في حلول المشاكل! لطالما اعتقدت ذلك واللورد أيضاً! هل تتذكر كيف قلبت المقاييس في تلك المعركة قرب فيكتوريا حيث كنت عندها متأكداً من أننا سننهزم امام الفرنسيين؟»

«اذا كان بامكاننا ان نهزم الفرنسيين، فبامكاننا ان نهزم جوليوس أيضاً».

فقالت جيسيلدا بيأس: «لكن... كيف يمكننا ان... نجعله يعتقد...»

قاطعها الماركيز قائلاً: «دعي كل شيء لي. سترتدين ملابس لائقة لتظهري امام جوليوس بشكل مرض، كما ستجعلينه يعتقد بطريقة متحفظة طبعاً، بانك لا تمانعين من تودده اليك».

«آه... انني متأكدة من أنه لا يمكنني القيام بذلك».

اجاب الماركيز مؤكداً: «ستقومين بذلك وبطريقة جيدة!»

فقال هنري سومركوت: «انها الفكرة مخادعة لا بأس بها، لكن، اين بامكانها ان تقيم؟»

بدا الماركيز مفكراً للحظات قليلة، ثم قال: «هنا! فمن الغباء ان اخسر فتاة مثلها تقوم على خدمتي. وفي الوقت نفسه، لن يفوتني شيئاً من هذه المكيدة المدبرة».

ضحك قبل ان يتابع: «في هذه الحال، اعتقد انه علينا ان نطلب الموافقة من مضيفنا».

اجاب هنري سومركوت: «انني متأكد كل التأكيد بان الكولونيل بركلي سيتمتع كثيراً بهذه المسرحية.»

«ما الذي سأتمتع به؟» قال الكولونيل بركلي وقد دخل الغرفة فجأة.

التفت الجميع إلى الكولونيل وقد علت الدهشة وجوههم لدخوله عليهم في هذه اللحظة بالذات.

ثم قال ممازحاً: «هل جئتم على ذكر اسمي؟»

كان سؤاله موجه لهنري سومركوت، لكنه كان ينظر إلى جيسيلدا التي وقفت في الحال عندما تقدم الكولونيل اكثر.

فقال الماركيز: «انك الرجل المطلوب يا فيتز. اننا نحتاج إلى موافقتك وكذلك مساعدتك في مسألة قريبة جداً من مجالك.»

وقف الكولونيل بركلي بالقرب من جيسيلدا، ثم قال: «هل يقدمني احد منكما إلى هذه الفتاة؟»

«جيسيلدا، هذا مضيفك الكولونيل بركلي... فيتز، هذه الآنسة جيسيلدا تشارت؟»

ادت جيسيلدا التحية باحترام. فقال الكولونيل بركلي: «انك اجمل بكثير مما كنت اعتقد حين لم تسنح لي الفرصة بالنظر اليك طويلاً.»

جلس الكولونيل بعد ذلك وقال: «والآن، اخبروني ماذا هناك. فمن الواضح انكم الثلاثة تتآمرون على شيء ما.»

اجاب الماركيز: «هذا حقاً ما نقوم به.»

اعاد الماركيز بايجاز للكولونيل ما كان يقوله لجيسيلدا الذي اخذ يقهقه بالضحك.

ثم قال الكولونيل بعد ان هدأ: «انها مثل المسرحيات التي تعرض في شلتنهام، فيا عزيزي تالبوت، ساطلب منك ان تكتب لي المسرحيات عندما اكف عن الكتابة.»

اردف الماركيز قائلاً: «لا دور لك في هذه المسرحية. بل لجيسيلدا فقط التي ستلعب الدور الرئيسي فيها، والتي عليها ان تقنع جوليوس بانها وريثة ثرية وستطلب من احدهم ان يلفت نظره إلى ذلك، وعندها فقط يتوقف عن ملاحقة الآنسة كلترباك ليركز اهتماماته على ثرية يوركشاير معتقداً ان ملايينها ستصبح بين متناول يديه.»

علق الكولونيل قائلاً: «عندها يتخلى عن الثروة الحقيقية ليتعلق بالأوهام. لقد اجدت حقاً يا عزيزي تالبوت التخطيط للفصل الأول من المسرحية. لكن ما يهم اكثر، هو ما الذي سيحدث للاثنين الآخرين.»

صححه الماركيز قائلاً: «لا بل ما يهم اكثر، هو ان ينخدع جوليوس قبل ان يورط نفسه مع الأخرى.»

فقال هنري سومركوت: «اوافقك في هذه النقطة، لانني عندما غادرت لندن، كان الجميع يتوقعون اعلان الخطوبة بين لحظة وأخرى.»

تدخل الكولونيل بركلي قائلاً: «من المحتمل ان يفكر جوليوس ان بمصاهرته إلى مثل هذه العائلة، قد تتقدم لتدفع له ديونه، فلطالما فعل ذلك من قبل.»

اجاب الماركيز بحدة: «هذا شيء لن اقوم به بعد الآن!»

فقال الكولونيل بركلي: «في هذه الحالة، يجب على جيسيلدا ان تكون مقنعة للغاية.»

ثم نظر اليها بطريقة جعلتها تشعر بالخجل.

أسرع الماركيز يقول عند ذلك: «هيا يا فيتز، اننا وفي هذه النقطة نحتاج إلى خبرتك ونصائحك».

فقال الكولونيل بركلي بجدية اكثر: «حسناً، اذا كان على جيسيلدا ان تقوم بدور الوريثة الثرية، من الأفضل ان تكون ارملة، وان يكون لها وصيفة لو ارادت ان تقيم هنا».

نظر الرجال الثلاثة إلى بعضهم البعض بادراك ومعرفة، لكن الماركيز كان متأكداً بأن جيسيلدا لم تفهم شيئاً.

ثم قالت: «اذا كنت ساكون ارملة، فهو حتماً سيسألني عن... زوجي».

فقال الكولونيل: «يجب ان يبدو عليك التأثر التام وبأنك تفضلين عدم التحدث عنه. لكن، عليك ان لا تنسي وضع خاتم الزواج في اصبعك».

تدخل الماركيز قائلاً: «ان حاجة جيسيلدا لا تقتصر على خاتم الزواج فقط بل أيضاً تحتاج إلى الملابس».

أجاب الكولونيل بركلي بنبرة مختلفة: «نعم، بالطبع، وهنا يمكنني مساعدتك، فالسيدة فيفيان المسؤولة عن ثياب كل مسرحياتي ستتدبر هذا الأمر بما لها من خبرة واسعة في هذا المجال. كما انها لن تفشي السر وهذا امر هام، والا عرف كل من في شلتنهام بأمر جيسيلدا».

فسأل هنري: «ماذا عن الخدم؟ خاصة اذا بقيت هنا».

نظر الكولونيل اليه بازدراء قائلاً: «وهل تعتقد ان الخدم الذين يعملون لدي يملكون الجرأة بالثرثرة حول احد ضيوفي، أو حتى بأي شيء قد يجري في هذا المكان؟».

توقف قليلاً ليضيف بعد لحظات بنبرة مؤثرة: «يمكن للعالم الخارجي ان يثرثر في اموري الخاصة، لكنني اؤكد

لك ان ما يحدث في أي بيت املكه هو خاص دون نقاش، عدا ان هناك بعض الفضوليين الأغبياء الذين يصدقون الأسوأ عني».

فقال الماركيز بحزم: «لن يكون هناك من شك حول جيسيلدا. ابعث وراء السيدة فيفيان ولتختار لها ملابس تليق بوريثة ثرية، لكن على ان تكون هذه الملابس محتشمة وانيقة، كما يتوقع دائماً من ارملة قادمة من يوركشاير».

وسأله هنري: «هل فكرت باسم لها؟».

خيم الصمت على الرجال الثلاثة وبدا عليهم التفكير الشديد، ثم قطع الكولونيل الصمت قائلاً: «ليكن اسمها بارونفيلد، اذكر انه كان هناك دور لرجل أو لامرأة لا اذكر، قادم أو قادمة من يوركشاير، وقد كان ذلك في أولى المسرحيات التي مثلتها».

وافق الماركيز قائلاً: «حسناً، ستكون جيسيلدا الأرملة السيدة بارونفيلد من يوركشاير التي جنت الملايين من بيع الصوف».

فقال الكولونيل: «وقد تكون والدتها في هذه الحالة، قريبة بعيدة لي، وذلك سيزيل أي تشابه في الأسماء».

شعرت جيسيلدا بالخوف فجأة وقالت بصوت مرتجف: «ارجوكم... انني خائفة من القيام بذلك... لنفترض انني لم انجح... لنفترض انه كشف امري؟».

أجاب هنري قبل الآخرين قائلاً: «عندها يتزوج جوليوس من الآنسة كلتربانك ولن يكون هناك ما يسيء اليك بأية طريقة وستختفي السيدة بارونفيلد عائدة إلى يوركشاير».

لقد سمح لنفسه بالاجابة على تردد جيسيلدا بينما

كانت هي تنظر إلى الماركيز نظرات تطلب منه الحماية والتوكيد.

فقال الماركيز: «ستقومين بهذا العمل على افضل وجه! وفي الواقع، ليس هناك الكثير لتقومي به. انني متأكد ان جوليوس سيأتي لزيارتي متى اخبره هنري ان هناك وريثة ثرية تقيم هنا. سأقدمه اليك ومن المؤكد انه سيقترح عليك الذهاب معه إلى حيث الينابيع المعدنية، وبعد بضعة مقابلات سيدعوك إلى تناول العشاء.»

ادرك الماركيز بينما كان يقول لها كل ذلك بأنها تشعر بالخوف من هذه المهمة التي اوكلت اليها، لكنه رأى في الوقت نفسه، ان مثل هذا العمل سيحل مشكلتها ومشكلته بمنع زواج جوليوس.

فقال الكولونيل: «لدي فكرة، يمكننا الاستعانة أيضاً بنيثلي الذي يهتم بمجموعة من الجواهر في اعمالي المسرحية.»

ثم اضاف بعد ان لمس اضطراب جيسيلدا لأنها ستضطر إلى استعمال أشياء ثمينة وقيمة: «ان لهذه الجواهر احجار مزيفة لا قيمة لها، واعتقد ان هناك عقداً من اللؤلؤ لترتديه، فمن الغريب جداً ان لا تملك وريثة ثرية واحداً مثله.»

وافق الماركيز قائلاً: «نعم بالطبع. صدقني يا فيتز، انه من المستحيل القيام بهذه المهمة من دون مساعدتك. متى برأيك تستطيع السيدة فيفيان مد جيسيلدا بالملابس؟»

اجاب الكولونيل بخفة: «في الحال، على ما اعتقد، ولأنني اعرف يا تالبوت بأن الأمر مستعجل، سأذهب لرؤيتها بنفسي ولأقول لها ان تأتي إلى هنا بأقصى سرعة.

من المؤكد ان لديها بعض الملابس الجاهزة لتتمكن جيسيلدا من الظهور الآن.»

ثم التفت إلى جيسيلدا واضاف مبتسماً: «ظهورك الأول هو اللحظة الأهم، فعليك ان تثيري اهتمام الجميع وتبقي على ذلك حتى نهاية المسرحية.»

صمت قليلاً ليتابع بعد ذلك: «لا تدعي مثل هذا العمل يقلقك! انا لا اسمح عادة للممثلين بذلك، وكل ما اطلبه منهم، ان يلتزموا حدودهم وان يعملوا تماماً كما قلت لهم.»

قالت جيسيلدا: «ان توتري ليس ناجماً من عدم معرفتي لحدودي.»

اجاب الكولونيل بلطف: «دعي كل شيء لي، سأقدمك بنفسي لجوليوس، واؤكد لك انني خبير جداً بمثل هذه الأمور.»

فقالت جيسيلدا بصوت منخفض: «اعتقد... انه من الأفضل... ان تدع ذلك... لسيدي الماركيز.»

شعر الماركيز بينه وبين نفسه بالفخر لأنها فضلته على الكولونيل الذي وافقها على الفور قائلاً: «بالطبع، فهذه مسرحية تالبوت الآن ويجب ان لا اتدخل، لذا سأعيّن نفسي مدير المسرح وبصراحة ودون اية مبالغة، انني اجيد هذا العمل بطلاقة.»

فقال الماركيز: «نعلم ذلك كلنا، انما يجب ان لا تخيف جيسيلدا، فأنا متأكد من انها لم تقم بمثل هذا العمل من قبل وبأنه لن يكون سهلاً عليها.»

علق الكولونيل بركلي قائلاً: «من يدري، قد نحظى بممثلة جيدة وجديرة مثل السيدة جوردان أو هارييت ميلون.»

فقال هنري سومركوت بخبث: «أو حتى مثل ماريا فوت؟»

نظر الكولونيل إليه واضاف: «لقد شاهدتها في مسرحيتها الأخيرة واعتقد بانها رائعة.»

ثم اضاف بثقة وكانه حقاً خبير بمثل هذه الأمور: «انها جميلة جداً.»

تدخل الماركيز قائلاً: «ستقوم جيسيلدا بدور السيدة باروفيلد فقط ولا شيء اكثر من ذلك. والآن، اسرع يا فيتز وابحث عن السيدة فيفيان، وانت يا هنري، حاول ان تعرف اين يقيم جوليوس.»

«انه يقيم في بلوم، والآنسة كلتيرباك تقيم في سوان.»

«اذاً لنأمل ان نبقيهما بعيدين عن بعض.»

فقال هنري سومركوت: «ماذا تريدني ان اقول له بالتمام؟»

فكر الماركيز للحظات قليلة قبل ان يقول ببطء: «قل له انك كنت تزورني وبانك وجدتني بصحة جيدة، ثم أشر بعد ذلك إلى تلك الأرملة الحسناء التي تقيم هنا.»

توقف قليلاً ليتابع بعد ذلك وكانه تنبه إلى شيء هام: «تذكرت شيئاً، من الأفضل ان تقول جيسيلدا عندما تسنح لها الفرصة، بانها كانت برفقة خالتها التي مرضت فجأة واضطرت ان تبقى في لندن، لكنها ستنضم اليها في وقت لاحق.»

وافقه الكولونيل على الفور قائلاً: «فكرة صائبة، يجب ان تمنح الممثلين سبباً وجيهاً لأي عمل يقومون به. فهو الجزء الهام من كل مسرحية.»

فقال هنري معجلاً: «وبعد ذلك؟»

«قل له بطريقة طبيعية طبعاً، بانك ستقوم بزيارتي هذه الليلة وبان عليه ان يرافقك...»

توقف الماركيز عن الكلام ليلتفت إلى الكولونيل قائلاً: «هل ستكون السيدة فيفيان جاهزة لجيسيلدا؟ من المؤكد انها تملك ثوباً واحداً على الأقل يناسبها.»

اجاب الكولونيل: «اعتقد ان هناك دزينة منها تناسب جيسيلدا. اترك الأمر لي يا تالبوت؛ انني ذاهب في الحال لأجد السيدة فيفيان، كما انني ساكلم نيتلي قبل ان اغادر المكان.»

فقال هنري: «انني ذاهب معك. اشعر ان هناك العديد من التفاصيل المهمة لنبحث بها في هذه القضية.»

ابتسم الكولونيل قائلاً: «سانقلك بعربتي التي تنتظرني في الخارج.»

اجاب هنري: «شكراً لك. المشكلة في هذه البلدة التي تملكها ايها الكولونيل، ان عليك ان تستعمل قدماك كثيراً لقلة المواصلات.»

قال الكولونيل: «ان كل الأطباء ينصحونك بذلك لأنها مفيدة لصحتك.»

فقال هنري ضاحكاً: «كما انني متاكد بانك تفكر بطريقة ما تمكنك من ان تتقاضى ثمناً لكل خطوة يخطوها الناس.»

خرج الرجلان من الغرفة بينما كان الماركيز ينظر إلى جيسيلدا منتظراً أي شيء منها.

كان يعرف بانها تتوجس شراً، وبانها أيضاً لا يمكنها ان تصدق ما قد قيل امامها قبل الآن.

فقال لها بلطف: «لا تخافي يا جيسيلدا، وسأكتب لك الآن شيكاً بمبلغ خمسين جنيهاً الذي تحتاجينه بإلحاح.»

قالت: «انه مبلغ كبير! من المؤكد انه مبلغ كبير!»

أجاب الماركيز: «اذا كنت تعتقدين ذلك، فيمكنك ان تسألي الكولونيل كم يدفع للهواة الذين يمثلون معه، وستجدين انه يعطيهم مثل هذا المبلغ كل اسبوع. وبما انني اتصور ان هذه المسرحية ستستمر لعشرة اسابيع أو اكثر، اظن انني لا اقدم لك الكثير.»

شعر بانها لم تقتنع فأضاف: «من الواضح انك لم تسمعي بقصة ادوارد كين الذي دفع له في شللتنهام خمسين جنيهاً لعرض صباحي، وبعد الظهر مثل هذا المبلغ في تكبري، ومثل هذا المبلغ أيضاً في المساء في غلوسيستر مما يعني انه كسب مبلغ مئة وخمسين جنيهاً في يوم واحد.»

«انني لست... ادوارد كين.»

ابتسم الماركيز قائلاً: «هل تريدين ان أوضح اكثر من ذلك؟»

اجابت جيسيلدا: «انك فقط... تفعل ذلك... من اجل انقاذي.»

اقر الماركيز: «في الواقع انه من اجل نصف السبب الذي اقترحته لخطتي. اما النصف الثاني فلأجل وكما تعلمين، عدم رغبتي بدخول ابنة مرابي إلى العائلة.»

«لنفترض ان السيد ليند... لم يهتم بي؟»

اجاب الماركيز: «انا لا افترض انه سيهتم بك كشخص، لكنه ومن دون شك سيهتم بمالك. فالكابتن سومركوت لم يكن يبالغ عندما قال بان جوليوس كان

يلاحق كل وريثة في لندن بغية الزواج منها بأية وسيلة.»

فكر الماركيز بعد ان انتهى من كلامه، هل من الممكن ان يصدق أي كان بأن جيسيلدا كانت امرأة متزوجة.

لقد كان فيها براءة وطفولة لم يجدها في اية امرأة أخرى، وقد بدت في ثوبها الأزرق البسيط فتاة صغيرة لم تختبر الحياة بكل ما في هذه الكلمة من معنى.

ثم قال لها بنبرة حازمة لأنه كان يعلم انه بهذه الطريقة ستطيعه على الفور: «انزلي إلى الأسفل يا جيسيلدا، واطلبي من السيد نيتلي ان يقوم بالمطلوب للحصول على مبلغ خمسين جنيهاً. كما اريدك ان تقولي له ان بإمكانه المجيء إلى متى يشاء ليحصل على الشيك. اما من ناحيتك، فبإمكانك ان تأخذي هذا المبلغ في صباح الغد للسيد نيول وان ترتبي معه اجراء العملية الجراحية لأخيك ليوم الخميس.»

صمتت جيسيلدا للحظات قليلة قبل ان تقول: «اذا فشلت... اذا لم يهتم السيد ليند بي... يجب ان اعيد المبلغ اليك.»

فأجاب الماركيز: «اذا استمريت في مجادلتي، فسوف تزيدين من مرضي، وعندها لن يعالج السيد نيول احد لأنه سيكون مشغولاً بي، لذا اطلب منك ان لا تعقدي الأمور اكثر من ذلك، وان تقومي بما اطلبه منك!»

كان يتكلم بحدة وغضب، فأسرعت جيسيلدا تعتذر: «انني آسفة... لم اقصد ازعاجك، كما انه آخر شيء انوي القيام به. انني جد شاكرة... شاكرة اكثر مما تتصور وانا عاجزة عن التعبير بذلك.»

«اذاً اظهري امتنانك لي بقيامك بهذا العمل بصورة طبيعية، وبانك سيدة نبيلة.»

اضافت جيسيلدا مبتسمة: «ومهنتها خادمة.»

فقال: «انني اعتبرك ممرضتي، ومهما بدا عليك الجاه في ملابسك الأنيقة، ومهما دعيت إلى الحفلات والاجتماعات بصفتك السيدة باروفيلد، فانك ستعودين الي لتشرفي على تضميد ساقي ومداواتها.»

اجابت جيسيلدا بلطف: «انت تعرف... انني سأقوم بذلك.. وارجوك... هل تسمح لي ان اشكرك من جديد؟»

فقال لها بحدة وكأنه ادرك انها الطريقة الوحيدة للتداول معها: «لا ارغب في ان اكون مهملاً.»

اجابت جيسيلدا واعدة: «لن تكون مهملاً، لكنني متأكدة انك الآن تحتاج إلى الراحة.»

اجاب الماركيز: «لن ارتاح اذا لم تصلني اخبار سير الأمور أول بأول، وعندما تحضر السيدة فيفيان اريد رؤيتها، كما اريدك ان تقولي لها بأنني سانتقي ملابسك بنفسي.»

«نعم بالطبع.» وافقته جيسيلدا على الفور، لكنها تذكرت فجأة شيء ما، فاضافت: «هل... هل أنت ستدفع ثمن هذه الملابس؟»

اجاب الماركيز مؤكداً: «سأدفع ثمنها، ولا اريد اية مجادلة في هذا الموضوع يا جيسيلدا، فلا احد يمكنه ان يقوم بانتاج عمل مسرحي دون ثمن، كما يمكنني ان اؤكد لك، ان أي شيء قد ينفق عليك، سيكون اقل بكثير مما انفقه جوليوس في العام المنصرم، عدا عن تلك المبالغ الأخرى في السنوات السابقة.»

فسألته جيسيلدا: «كيف يمكنه ان ينفق مثل هذه المبالغ؟ ما الذي يشتريه يا ترى؟»

اجاب الماركيز: «يا ليته كان ينفقها على الجياد كما يفعل الكولونيل لكنت عذرته، لكن جوليوس ينفقها على التسلية والحفلات وامور أخرى بشعة.»

«يا له من عمل غبي!»

«كما قلت، عمل غبي ومكلف جداً!»

فقالت جيسيلدا متأملة: «لا يمكنني ابداً ان اعجب بشاب مثله.»

توجهت بعدها نحو باب الغرفة وتابعت قائلة قبل ان تخرج: «سأبلغ الخادم بانك تريد رؤية السيدة فيفيان عندما تصل.»

حدّق الماركيز بباب الغرفة بعد خروجها بدهشة واستغراب، انها ومن بين الاشياء الغامضة التي تحيط بهذه الفتاة، هناك شيء آخر يختص بالنساء قد ازعجها.

فتساءل انه لربما والدها هجرها وهجر عائلتها بسبب امرأة أخرى، لكن اذا كان الأمر كذلك، لماذا تتكتم على هذا الأمر بهذه الشدة؟

هناك دائماً المزيد من الغموض حول جيسيلدا!!

وادرك الماركيز انه لغاية الآن ومنذ ان قابل جيسيلدا لأول مرة وهي في حالة الجوع الشديد، لم يستطع ان يكتشف سراً واحداً من اسرارها التي تصر على اخفائها في صدرها.

هناك أمر واحد مؤكد الآن، انها لم تعد جائعة هي وعائلتها من الجنيه الواحد الذي يمنحه لها مطلع كل اسبوع وأيضاً من الطعام المتبقي الذي يطلب منها ان تأخذه إلى عائلتها كل مساء، حتى ان بامكان شقيقها ان يجري تلك العملية التي يحتاج اليها.

فقال الماركيز لنفسه: انني ويوماً بعد يوم اكتشف سراً آخر يحيط بهذه الفتاة.

وفكر انه كم كان من الاسهل عليه ان يكتشف معلومات سرية تخص العدو ابان الحرب، من ان يكتشف الآن أي شيء يختص بجيسيلدا.

لكن وبالرغم من افكاره المتضاربة، تمكن ان يغفو قليلاً بعد ان تناول وجبة الغذاء الخفيفة. بعدها طرقت السيدة فيفيان باب الغرفة ودخلت.

كانت السيدة فيفيان امرأة فرنسية تعمل لدى الكولونيل منذ ان قام بمسرحيته الأولى.

كانت على علم مسبق بما يطلبه الماركيز منها وقد احضرت معها كل الثياب الجاهزة لديها في الوقت الحاضر مع القبعات والشالات التي تليق بها. هذا بالاضافة إلى تصاميم أخرى مازالت مرسومة على الورق كي يختار منها ما يروق له.

وضعت السيدة فيفيان تلك التصاميم على طاولة صغيرة إلى جانب السرير ثم اقترحت ان تأخذ جيسيلدا إلى غرفة أخرى لتقيس الثياب الجاهزة التي احضرتها معها.

ثم تركتا الماركيز يدقق النظر في تلك التصاميم التي وجدها لا تتناسب بأي شكل مع شخصية جيسيلدا.

لكنه لم يكن يعلم انه بعد وقت قليل سيغير رأيه بل سيصاب بصدمة من الذي قد يراه.

بدأ يتململ ضجراً متسائلاً عن الذي يجري في الغرفة الأخرى، حتى انه قرر ان يقرع الجرس لباتلي وان يقول له ان يبلغ السيدة فيفيان بأنه تعب من الانتظار. لكن الباب فتح

فجأة وظهرت منه قائلة: «لقد ألبست السيدة باروفيلد كما اشار إلى الكولونيل، وآمل يا سيدي ان ينال ذلك موافقتك.»

ثم اشارت بيدها إلى جيسيلدا التي كانت تنتظر خارجاً.

دخلت ببطء وحدّق بها الماركيز بذهول شديد. فقد بدت جيسيلدا ناضجة واكبر سناً من سنواتها التسعة عشر. لكن الذي لم يتوقعه قط، هو ان تبدو بهذا الجمال. ولم يستطع للوهلة الأولى ان يفهم ما الذي قامت به السيدة فيفيان لتحدث فيها مثل هذا التغيير.

لكنه فهم بعد ذلك انها قد وضعت على وجه جيسيلدا بعض المساحيق التجميلية التي تستعملها النساء هذه الايام.

ولأول مرة ادرك الماركيز لما كانت جيسيلدا تبدو شاحبة وحقيرة المظهر، ذلك بسبب عدم استعمالها لمثل هذه المساحيق المكلفة.

بالمختصر المفيد بدت جيسيلدا رائعة الاناقة.

طال تحديق الماركيز بها إلى ان ادرك انهما تنتظران منه رأيه. فقال وعينيه ما تزالان تنظران إلى جيسيلدا: «لا يسعني سوى ان اهنئك ايتها السيدة. لقد كان الكولونيل على حق حين قال انك فنانة مبدعة انتجت جمالاً ما بعده جمال».

انحنت السيدة فيفيان له باحترام وقالت: «شكراً لك يا سيدي، فرضاك هو كل مبتغاي».

أكد الماركيز قائلاً: «انني راضٍ كل الرضا».

• • •

بعد مغادرة السيدة فيفيان، قالت جيسيلدا للماركيز بصوت مضطرب: «انني... قلقة».

فسألها الماركيز: «ولماذا؟»

«لقد قالت لي السيدة فيفيان أنك أشرت إليها أن تشتري لي العديد من الثياب... صدقني... أنا لا أحتاج إلى مثل هذه الكمية... كما أن فاتورة الحساب ستكون هائلة».

فقال لها الماركيز: «هل عدت إلى التدخل بخطتي يا جيسيلدا؟»

أجابت: «لا... لا، بالطبع لا. كل ما في الأمر، أنني لا أريدك أن تنفق علي مثل هذه المبالغ الطائلة».

أجاب الماركيز: «يمكنني أن أنفق مالي كما يحلو لي، وأود أن أشير لك بأنه لم يسنح لي السنة الماضية أن أنفق قرشاً واحداً من ثروتي الطائلة سوى على الأطباء».

«هل تعني أنك سعيد بشراء الثياب التي اخترتها لي... وكل الأشياء الأخرى؟»

أجاب الماركيز: «أصدقك القول حين أقول لك أن ذلك يمتعني كثيراً! فمن الغباء أن أدعك تدفعين ثمن ملابس الخطة التي رسمتها».

ظلت على حالها من الحيرة والقلق، فتابع يقول: «إذا كنت تفكرين بأن تعيدي لي ثمن هذه الملابس، فإنني سأعاقبك! لكن إذا كان الأمر يريحك لأن كرامتك لا تسمح لك أن تقبلي بها، وكي نوفر على أنفسنا الجدال كل مرة، بإمكاننا أن نقدم هذه الملابس لأعمال الكولونيل المسرحية».

توقف الماركيز قليلاً قبل أن يتابع: «لقد علمت من السيدة فيفيان أنه يملك عدداً لا يستهان به من الملابس المسرحية لكل المناسبات، وذلك كي لا تعوقه خياطة الملابس عندما يقرر تقديم أية مسرحية».

وابتسم قبل أن يتابع: «كما أنني عرفت أنه وضعت عربات ذات جياد سريعة جاهزة للعمل المسرحي في قصر تلتنهام منذ أزل».

فقالت جيسيلدا بصوت ضعيف: «أعتقد أنك تظنني... غبية جداً».

أجاب الماركيز: «على العكس، أحترم مشاعرك في هذه القضية، فمعظم النساء يتهافتن على تمثيل مثل هذا الدور، أما أنت فلا يا جيسيلدا، وأعتقد أن العديد من الرجال سيعجبون بمثل هذه الخصائص الفريدة التي تملكينها».

تنهدت بارتياح ثم قالت مثل الأطفال المترددين: «لن... أخذلك... أليس كذلك؟»

أجاب الماركيز: «إنني متأكد جداً بأنك لن تفعلي ذلك».

التقت نظراتهما، فشعر كل منهما بشيء غريب، فقالت جيسيلدا وهي تبعد نظرها عنه: «سوف... أبلغك بموعد الشاي... أو هل ترغب بشيء آخر؟»

أجاب الماركيز: «أعتقد أننا نحتاج معاً إلى بعض من الشراب المنعش كي نتمكن من مواجهة جوليوس الذي سيحضره هنري في أية لحظة».

فكر الماركيز بعد خروج جيسيلدا في هذا الحظ الذي سيجبر جيسيلدا على أن تقابل جوليوس الحقير كي تحصل بالمقابل على الخمسين جنيهاً تأميناً للعملية الجراحية لأخيها.

• • •

لم يستطع الماركيز النوم بالرغم مما كان يشعر به من

الارهاق والتعب، لأنه كان مشغول الفكر بالخطة التي اعدوها والتي ستجعل مقابلة جوليوس في أية لحظة من الآن.

ابلغ باتلي عن قدوم السيدين واستقبلهما الماركيز بمفرده في البداية.

فقال الماركيز بحماسة نادراً ما اظهرها في السابق: «يا لها من مفاجأة يا جوليوس!»

«يسرني ان اراك بصحة افضل يا ابن العم تالبوت.»

طلب الماركيز منهما ان يجلسا، كما طلب من باتلي ان يحضر المزيد من الشراب المنعش.

ثم قال: «لقد استدعيت ضيفة تنزل في هذا المنتجع تدعى السيدة باروفيلد، لكنني لم احصل منها على جواب بعد، فقد يكون لها ارتباط آخر.»

فقال هنري سومركوت: «لقد اخبرت جوليوس بأمر السيدة باروفيلد، وبصراحة، اعتقدت عندما قابلتها البارحة هنا، بانها امرأة مميزة جداً.»

اجاب الماركيز ببرود: «اخشى ان يكون رأيي مخالف لرأيك يا هنري بالرغم من ان هناك العديد من الرجال الذين يوافقونك على ذلك.»

فعلق هنري سومركوت قائلاً: «هذا أمر لا يدهش خاصة عندما تعرف انه لم يبق الكثير من عائلة باروفيلد.»

سأل جوليوس عند ذلك: «هل كانت اصغر بكثير من زوجها؟»

اجاب هنري سومركوت: «اصغر بكثير جداً، واعتقد ايضاً انها كانت زوجته الثانية. في كل الاحوال، انها اصغر

من ان تكون ارملة، واصغر من ان ترث الملايين من عائلة باروفيلد.»

فقال جوليوس بأسلوب نكد وكأنما مثل هذه المعلومة ابعدت عنه عن قصد: «لم اسمع بحياتي كلها عن عائلة باروفيلد، فهل تعلم يا تالبوت أي شيء عنها؟»

قال الماركيز بدهشة واستغراب: «تقول انك لم تسمع في حياتك كلها عن عائلة باروفيلد؟ امر يثير الدهشة حقاً!»

فتح الباب في تلك اللحظة ليقول باتلي: «السيدة باروفيلد يا سيدي» ثم دخلت جيسيلدا بعد ذلك.

فقال الماركيز بحيوية: «لطف كبير منك ان تلبي دعوتي. لقد كنت اخشى ان تمنعك ارتباطاتك الكثيرة عن زيارة رجل مريض مثلي.»

اجابت جيسيلدا بأدب: «انه لطف منك ان تدعوني لزيارتك.»

فتابع الماركيز يقول: «دعيني اقدم لك ضيفاي الآخران، الكابتن هنري سومركوت الذي قابلته بالأمس، وابن عمي السيد جوليوس ليند الذي وصل على الفور من لندن والذي سيطلعنا ايضاً بكل الأخبار التي فاتتنا ونحن في هذا المنتجع.»

ابتسمت جيسيلدا للرجلين بخجل، ثم جلست على كرسي كان معداً لها.

لاحظ الماركيز بانها وضعت حول عنقها عقداً من اللؤلؤ حسب طلب الكولونيل، ودبوساً للزينة مرصعاً بحجر نفيس وضعته في أعلى ثوبها، كما وضعت في اصبعها خاتماً من الماس إلى جانب خاتم الزواج الذهبي.

فسألها جوليوس: «هل سبق لك وزرت شلتنهام من قبل ليتها السيدة باروفيلد؟»

اجابت جيسيلدا: «لا، انها زيارتي الأولى، ولقد كنت متحمسة جداً عندما دعاني الكولونيل وعمتي إلى منتجعه، فلقد سمعنا الكثير عن مناظر شلتنهام الخلابة وفعالية مياهها المعدنية.»

فسألها جوليوس: «وهل سنحت لك الفرصة بزيارة كل ذلك؟»

اجابت جيسيلدا بابتسامة واهية: «للأسف لا، لأن عمتي اصيبت بوعكة صحية عندما وصلنا إلى لندن ولن تتمكن من الانضمام إلينا الا بعد بضعة ايام.»

فقال جوليوس: «اذاً وإلى ان تصل، ليس هناك من يصطحبك إلى ينابيع المياه المعدنية. ففي هذه الحال، آمل ان تسمحي لي بأن اصطحبك إلى هناك وان اقدمك إلى السيدة فورتي التي تعتبر من اهم شخصيات شلتنهام.»

نظرت جيسيلدا اليه متسائلة، فشرح لها الأمر: «تعرف السيدة فورتي بأنها من اهم المعالجين بالمياه المعدنية وقد خدمت العائلة الملكية عندما جاءت إلى هنا. كما رسمت صورتها الشخصية بناء على الأوامر الملكية وهذا امر لا يسمح لأي كان.»

كان الماركيز على ثقة كبيرة بأن جوليوس اطلع على دليل السائح قبل ان يقدم مثل هذه المعلومات كي يؤثر على السيدة باروفيلد بما يملكه من معلومات عن شلتنهام.

كما ادرك الماركيز ان صديقه هنري قام بعمله على اكمل وجه، فامتنع عن النظر إليه كي لا يفرط بالضحك.

فقالت جيسيلدا: «اذاً سيكون من الممتع جداً لي مقابلة السيدة فورتي.»

سألها جوليوس عند ذلك: «في هذه الحال، هل تسمحين لي بتقديم التعارف بينكما غداً؟ وفي اية ساعة ترغبين ذلك؟»

«اعتقد في الساعة العاشرة.»

قال هنري سومركوت: «انه الوقت المثالي حقاً، وستجدين كل وجهاء شلتنهام يشربون من المياه المعدنية ويتظاهرون بأنها مفيدة جداً، بينما في الواقع تثير القرف في النفوس.»

فسألت جيسيلدا: «وهل هي سيئة لهذا الحد؟»

اجاب هنري سومركوت: «لا فكرة لدي فأنا لم اذقها يوماً ولا انوي على ذلك، لكنني اعتقد ان على تالبوت زيارة تلك الينابيع المعدنية حالما يشفى كلياً.»

فقال الماركيز بحزم: «دعوني أوضح لكم الأمر، فأنا لا نية لي بشرب هذه المياه.»

نظر إلى جيسيلدا وهو يتكلم، فشاهد وميضاً خفيفاً في عينيها الخبيرة لو ان هذه المياه مفيدة حقاً له، لكانت حاولت اقناعه بها فيما مضى.

وتابع جوليوس يقول: «كما ان هناك العديد من الأماكن لترويها ليتها السيدة باروفيلد مثل قاعات الاجتماعات والمسرح الذي يعرض مسرحية خاصة لمناسبة زيارة اللورد ويلينغتون لشلتنهام واسمها الحب في القرية.»

«وهل سيمثل فيها فنانون مشهورون؟» سألت جيسيلدا ذلك لأنه كان منتظراً منها ان تقول شيئاً.

أجاب جوليوس: «لا فكرة لدي.»

تدخل هنري سومركوت قائلاً: «ربما ماريا فوت ستقوم بدور البطولة.»

تطرق الجميع بعد ذلك إلى أحاديث متنوعة، وكان جوليوس بين الحين والآخر ينظر إلى الماركيز نظرات كلها تحد بينما تابع هذا الأخير يتظاهر بالدماثة والمرح.

مرت هذه الخدعة على جوليوس ليند وانتهت الزيارة دون أن يدرك ما يخفيه الماركيز.

أما ما لم يأمل جوليوس رؤيته، هو تماثل الماركيز للشفاء وهو الذي وعد نفسه بأنه قد يموت متأثراً بجراحه، ويرث هو من بعده الأموال الطائلة التي ستمكنه من إيفاء ديونه المتراكمة.

فبالرغم مما كان يظهره جوليوس من الأدب والاحترام، كان في نفسه منزعجاً من مجيء الماركيز إلى شلتنهام ومعالجته على يد الطبيب توماس نيول الذي يعتبر واحد من أهم الجراحين في البلاد.

لقد كان جوليوس يتمنى من صميم قلبه لو أن ابن عمه تالبوت قتل في ساحة القتال، أو مات بعد ما رفض بتر ساقه الملتهبة.

نهضت جيسيلدا بعد ذلك مستأذنة بالخروج بغية أن تستريح قليلاً قبل تناول العشاء، ووقف جوليوس أيضاً وقال لها بإخلاص وصدق أنه سيعد الساعات التي ستفصله عن لقائهما غداً في الساعة العاشرة.

فأجابت جيسيلدا بأدب: «هذا لطف منك يا سيدي» ثم ابتعدت عنه باتجاه غرفتها التي اختارتها لها السيدة

كنغدوم، لكنها لم تبتعد كثيراً، فبعد أن شعرت بأن جوليوس هبط السلالم إلى الطابق الأسفل، أسرعت بالعودة إلى غرفة الماركيز.

كان هنري سومركوت يودع الماركيز حين دخلت جيسيلدا لتقول بصوت متقطع: «هل... أديت دوري جيداً؟ هل قمت بما كنت تريدني أن أقوم به؟ هل تعتقد بأنه اقتنع بي؟»

أجاب الماركيز بهدوء: «لقد كنت رائعة»

www.liilas.com
وحده فاضيه

الفصل الرابع

«عمت مساء سيدة باروفيلد.»

«عمت مساء سيد ليند، وشكراً لمرافقتك لي هذه الليلة.»

أجاب جوليوس: «لقد كان شرف كبير لي، ولقد تمنيت لو أتيح لنا الوقت أكثر من ذلك.»

بينما احتارت جيسيلدا بما تجيب، تابع هو يقول بصوت منخفض: «هناك الكثير لأقوله لك، وأملت لو اتيحت لي الفرصة هذه الليلة.»

ادركت جيسيلدا ما كان يعنيه وحولت نظرها الى الخادمين وراءها ولم تجب، ففهم من ناحيته ما كان يجول في فكرها.

ثم تابع يقول: «ارجو ان تسمحي لي ان اجيء اليك غداً لأرافقك الى ينابيع المياه المعدنية.» ودعها بعد ذلك باحترام بالغ، لكنها اسرعت تصعد السلالم وهي تشعر بارتباك شديد في داخلها.

شعرت بنظراته عليها واشتد ارتباكها أكثر، لكنها لم تتحرر من كل ذلك الا عندما سمعت الباب الأمامي يقفل بشدة.

تابعت تسرع في خطواتها إلى ان وصلت إلى الردهة التي فيها غرفة الماركيز، فقالت بينها وبين نفسها: ربما يكون نائماً الآن.

لكنها تذكرت اصراره برؤيتها حالما تعود من رفقة جوليوس.

ففتحت الباب بهدوء لتجد ان الشموع ما زالت مضاءة، بينما كان الماركيز جالساً.

اغلقت باب الغرفة وتقدمت إلى الداخل فقال لها الماركيز: «لقد تأخرت كثيراً!»

كان في نبرة صوته لوم وعتب، فأجابت جيسيلدا بسرعة: «آسفة، انما كان من المستحيل علي ان أعود في وقت ابكر.»

«ماذا تعنين بقولك من المستحيل؟»

«كان هناك الكثير لرؤيته... كما ان الكولونيل بيركلي قدمني الى عدد من الاشخاص.»

«لماذا فعل ذلك؟»

«اعتقد انه اراد ان يكون لطيفاً، وأيضاً كي يوحي للجميع انني حقاً واحدة من قريباته.»

فقال الماركيز: «قولي لي ما حدث، وعن رأيك بقاعة الاجتماعات التي رأيتها.»

أجابت جيسيلدا: «انها رائعة حقاً، لكن الجميع، كانوا يتحدثون عن القاعة الجديدة مستخفين بالقديمة.»

ثم تابعت: «لكنني... كنت اشعر بالارتباك الشديد.»

فقال الماركيز: «يمكنني ان افهم صعوبة الأمر عليك وأنا شاكر لك لهذه الخدمة التي تؤدينها لي. لقد اخبرني هنري بمدى انزعاج الآنسة كلنر باك من تصرفات جوليوس تجاهها ويعتقد انها ستغادر شلتنهام قريباً وعندما يتم ذلك، ستنتهي كل مشاكلنا.»

ثم اضاف: «على فكرة، كم من الوقت على اعتقادك سيبقي الطبيب نيول اخيك في المستشفى؟»

«قال لي، بما أن العملية الجراحية دقيقة للغاية، سيبقيه في المستشفى حتى نهاية الأسبوع.»

«لكن أليست مضمونة النجاح؟»

أجابت جيسيلدا بانزعاج: «هذا... ما نأمله، أو لو تعلم كم أمي وأنا شاكرتين لك لأنك أتحت لنا هذه الفرصة.»

أجاب الماركيز: «أنت من أتحت له هذه الفرصة. لقد تمكنت وبطريقتك الخاصة من مساعدة أخيك.»

وعندما لم تجب تابع يقول: «انه من عديم الانسانية ألا تسمحي لي بمساعدة عائلتك، الا تعرفين ان من الأفضل ان تعطي أكثر مما تأخذي؟»

«لقد قدمت لي... حتى الآن كل ما اريده.»

«لكن ليس كما أرغب في أن أعطيك، أشعر يا جيسيلدا أنك تعتقدينني عدواً.»

أسرعت تجيب: «لا أبداً! إنما فقط...»

تلاشت كلماتها ولم تفصح عن رأيها، فقال الماركيز بعد لحظات يكمل ما أرادت قوله: «إنما هناك بعض الاسرار التي لا تريدين كشفها لي لأنك في الواقع لا تثقين بي، وأجد هذا شيئاً مؤذياً للمشاعر.»

أجابت جيسيلدا: «أريد أن... أثق بك... أعدك بذلك... لكنني لا أستطيع.»

كان في صوتها شيء أشبه بالنحيب والعويل فقال الماركيز: «أعتقد بأنك تعبة الآن، لذا فلن أزعجك أكثر هذه الليلة فاذهبي إلى النوم.»

«هل تشعر بالراحة... أعني أليس هناك من أوجاع؟»

أجاب الماركيز: «تعلمين أن جراح ساقي قد اندملت

تقريباً، وإذا كنت قلقاً لأي شيء، فهو بشأنك وليس بشأني.»

«لا داعي لأن تقلق من أجلي.»

«كيف يمكنني التأكد من ذلك وأنت بمثل هذا الغموض والسرية؟ كيف وأنت تقيمين حاجزاً بيني وبينك لا يمكن تجاوزه؟»

قالت جيسيلدا: «إنني لا... لا أعني أن أكون كذلك... أتمنى لو...»

مرة أخرى خانتها العبارات وكأنها تخشى أن تبوح بالمزيد، وبإحراج تحولت نحو الباب، فعندما وصلت إليه التفتت نحو الماركيز وودعته بأدب واحترام.

ثم قالت بلطف: «عمت مساء يا سيدي، وأريد أن أشكرك من صميم قلبي.»

خرجت جيسيلدا من الغرفة بينما بقي الماركيز يحدق بالباب الذي اقفلته وراءها لمدة طويلة.

كان يحاول كما قد حاول لمرات عديدة قبل الآن، أن يفكر وأن يحاول الوصول إلى السر الغامض الذي تحاول جيسيلدا اخفاءه عنه بعزم وعناد.

لكنه كان يأمل أنه عاجلاً أم آجلاً سوف تثق به وتطلعه على كل شيء بنفسها، لذلك طلب من باتلي ألا يتحرى عنها بعد اليوم.

لقد حاول وبيأس أن يجمع الكلمات التي قالتها جيسيلدا أمامه دون أن تدري لعله يصل إلى كشف الغموض الذي تلف نفسها به.

كان قد عرف منها بأنها تعيش في الريف مع أنها تتمتع بثقافة عالية، ويذكر كم من المرات حاول أن يجرها إلى

الكلام عن والدتها، لكنها كانت في كل مرة تتفوّه بكلمات مبهمة أو لا تجيب على أسئلته بتاتاً.

كان يعلم أيضاً بأنها تحب شقيقها الأصغر سناً حباً كبيراً، ولا شيء أكثر من ذلك.

مع أنه كان بإمكان الماركيز طرح أسئلة عديدة على الطبيب نيول ليعرف شيئاً عن حياتها أو أسرارها، لكنه أحجم عن ذلك. فبالرغم من فضوله، كان يحترم تكتم جيسيلدا حيال هذا الموضوع ولن يحاول التجسس عليها بمكر وخبث كما يفعل بعض الناس.

انما وفي الوقت نفسه، أخذ يشعر بالاحباط لإدراكه بأنه خاسر في معركته بينه وبينها، وهو الذي خاض معارك ناجحة في كل مرة.

كما انه كان يستاء ويغتاظ من فكرة مرافقة جوليوس لجيسيلدا وأيضاً من مقابلتها للكولونيل باشلي دون أن يكون معهم.

لقد كره أيضاً فكرة زيارتها قاعة الاجتماعات هذه الليلة، لكنه كان من المستحيل عليها أن ترفض دعوات جوليوس، كما انه قد يكون من غير المستحب بما انها تلعب دور السيدة باروفيلد أن لا تتعرف على جميع المرافق السياحية في شلتنهام.

الشيء الوحيد الذي كان الماركيز يرغب في أن تزوره، هو الينابيع المعدنية وأن تتذوق مياهها العذبة. أما مرافقة جوليوس إلى الحفلات ومآدب العشاء، فهذا ما كان لا يريده أبداً.

وكأنما كانت جيسيلدا تقرّ ضمناً برأي الماركيز، فقد قالت وقتها: «لا أرغب بالذهاب معه.»

وقد أجاب عندها هنري سومركوت: «سوف تتمتعين بوقتك، كما انك ما زلت شابة فإذا لم تقبلي الدعوات الآن، لا تنتظري أن يدعوك أحد متى أصبحت مسنّة.»

فقال الماركيز عند ذلك: «لا أعتقد أن جوليوس هو المرافق الذي ترغبه أية فتاة.»

أجاب هنري سومركوت على الفور: «لكن الضرورة والحاجة تحتم عليها ذلك.»

تمنّت جيسيلدا بعد أن خرجت مع جوليوس لو انها لا تخرج برفقته، واكتشفت سريعاً أن كل ما قاله الكولونيل وهنري سومركوت عنه كان صحيحاً، وبأنه حقاً شاباً لا يسرّ المرء بحضوره، كما وجدته متملقاً جداً وهو يكلمها.

لقد بدا بعد ثلاثة أيام يبدو أمامها مؤثراً وذلك طبعاً لعلمه بأنها سيدة ثرية. فلو لم تكن جيسيلدا تعلم بقصته لكانت صدقته لأنه أجاد حقاً تمثيله لهذا الدور.

وبعد ان تحادثا بمختلف الأحاديث خلال زياراتهما إلى أماكن سياحية عديدة، بدأت جيسيلدا تعتقد، بأنه يجدها بالفعل امرأة مميزة.

سألها مرة بعد ظهر أحد الأيام: «هل شاركت في إحدى الحفلات التي تقام في لندن؟»

نفت جيسيلدا بحركة من رأسها، فتابع هو يقول: «انك حتماً ستجدينها مختلفة جداً عن تلك الحفلات التي تقام في يوركشاير.»

«أخشى أن أبدو بين سكان لندن كالريفية التي تجهل كل ما يجري خارج بلدتها.»

أجابها جوليوس: «هذا غير صحيح، انك حتماً ستتميزين بينهم، كما انني سأفتخر برفقتك كما أنا هنا الآن.»

شعرت جيسيلدا بعدم ارتياح لنبرة الاخلاص التي أظهرها في صوته، ولم تستطع أن تتصور أن أي رجل قد يكون قاسياً مهما كان سيئاً أو سمعته غير مستحبة.

وشعرت لأول مرة منذ أن أسند إليها الماركيز هذا الدور بالخجل من نفسها لمخادعتها لجوليوس.

في الواقع، ليس من سبب يدعوها لأن تشعر بمثل هذا الشعور خاصة بعد ان اصغت إليه وهو يكذب عليها منذ أول يوم من لقائهما، كما انها كانت تعرف مسبقاً بانه لم يقبل برفقتها لأجلها بل لأجل ثروتها، تماماً كما فعل مع الآنسة كلترباك.

لكن أخلاقها التي تتمتع بها كانت ترفض وتكره دورها الذي يتطلب منها أن تكذب وتراوغ على أي كان مهما كان سيئاً أو شقياً.

فالبارحة، ولأنها شعرت بأن جوليوس ازداد تودداً إليها، غيرت مجرى الحديث لتظهر اعجابها بالمباني البديعة التي يفتخر بها الكولونيل بيركلي.

كان في أماكن المياه المعدنية العديد من الناس الذين جاءوا خصيصاً لتذوق مياهها العذبة، لذلك فقد شعرت جيسيلدا وهي برفقة جوليوس بالطمأنينة، ولكنها وعندما أصبحت في عربته التي يقودها بنفسه دون سائس، اضطربت وشعرت باحراج شديد.

كان الماركيز ومعه هنري سومركوت في انتظار

عودتها، ولأنها كانت تشعر بالذنب لكونها تلعب الدور الهام في هذه المؤامرة، أجابت على اسئلتهما بارتباك، وعادت إلى غرفتها عندما سنحت لها الفرصة لذلك.

فسأل هنري سومركوت عندما أصبحا بمفردهما: «ما الذي ازعجها؟»

أجاب الماركيز: «لا أعلم.»

«هل من المعقول أن تكون قد بدأت تنجذب إلى جوليوس؟»

قال الماركيز بحدة: «إذا كان هناك شيئاً غير معقول، فقد يكون هذا. أنا أعرف جيسيلدا، فهي لن تنخدع بمشاعرها ولن تنقاد بعواطفها خاصة مع شاب مثل جوليوس.»

أجاب هنري: «آمل أن يكون كلامك صحيحاً، لكن لا أريدك أن تنسى بأنها ما زالت صغيرة السن، ومهما أنت وأنا نعتقده بجوليوس، فهو ما زال شاباً أنيق المظهر يلفت الأنظار.»

قال الماركيز بعد لحظات من التفكير: «لو اعتقدت للحظة واحدة أن ذلك ممكن الحدوث، لكنت أوقفت هذه المهزلة وسمحت لجوليوس بالزواج من الآنسة كلترباك مهما كانت النتائج!»

انزعج هنري سومركوت من نفسه للعاصفة التي أحدثها وقال ملطفاً الأجواء: «لا داعي لأن تقلق نفسك، من الواضح ان جيسيلدا لن تنجرف بكل ذلك، كما انها تدرك أيضاً انه مهما ازداد اعجابها بجوليوس، فلا مستقبل مضمون لها معه.»

غادر هنري الغرفة بعد ذلك وقد ترك الماركيز غارقاً في الحيرة والظنون.

وفي اليوم التالي، قالت له جيسيلدا بأنها ذاهبة إلى الينابيع المعدنية مع جوليوس ليند كالعادة.

فسألها: «هل بدأت تميلين إلى ذلك الشاب الفاسد؟»

سألت جيسيلدا بدهشة: «ماذا؟ أميل؟»

«لقد فكر هنري بذلك، خاصة عندما لم تفصحي أمامنا بالأحاديث التي دارت بينكما. هل انك ستخرجين معه بعد ظهر هذا اليوم؟»

لم تجب جيسيلدا في الحال، لكنها قالت بعد لحظات: «دعني أقول لك... بانني شعرت بالانزعاج من الأكاذيب الكثيرة التي قمت بها واعتقدت نفسي شريرة، فانا أعلم ان من يفعل ذلك مصيره العذاب.»

قال: «هل هذا حقاً ما يقلقك؟»

فسألته بصوت منخفض متردد: «إلى متى... عليّ أن أقوم بذلك؟»

أجاب الماركيز: «ستتابعين القيام بذلك طالما هناك ضرورة، لكنني اعتقد انه حتى لو انقذت جوليوس من الآنسة كلتربك، فسيكون هناك المزيد من أمثالها، بالرغم من تلقينه درساً هذه المرة.»

سألته جيسيلدا: «ألا تعتقد ان هذا الدرس سيكون الأول والأخير؟ خاصة وانه سيشمئز ويكرهك أكثر من ذي قبل.»

فسألها الماركيز مستفسراً: «هل هو يكرهني؟»

أدركت جيسيلدا انها لم تتصرف بحكمة، لكنها فكرت في

الوقت نفسه، لا بدّ للماركيز وأن يكون عالم بعدى استياء جوليوس له خاصة بعد ما رفض ان يمده بالمال في الأونة الأخيرة.

ضحك الماركيز ضحكة باردة عندما لازمت جيسيلدا الصمت، ثم قال: «اعتقد انني قد أكون غبياً لو أصدق بان جوليوس شاكر لي للمساعدات السابقة التي قدمتها له.»

قالت جيسيلدا: «ربما هو أيضاً يعتقد ان من الأفضل أكثر أن يعطي الانسان أكثر مما يأخذ.»

فسألها الماركيز: «هل تستعملين عباراتي ضدي؟»

«أبداً، انما وجدتها الآن ملائمة.»

ضحك بطريقة مختلفة تماماً ثم قال: «أرى انك تحاولين جعلي أشعر بالذنب، حسناً، لكن وبصراحة أقول لك، انك لن تنجحي بذلك. لقد بدد جوليوس كل ثروة والدته في وقت قصير، فلو اعطيته الألوف من الجنيهات اليوم، فهو من المؤكد سيعود غداً لطلب المزيد.»

«ما هو الحل إذاً؟»

أجاب الماركيز: «لا أعرف في الحقيقة، فهذه المسرحية التي نقوم بها، ليست سوى مناورة لنمنعه من الزواج من تلك الوريثة الثرية وكل ذلك بواسطتك، واعرف انه قريباً جداً سيطلب منك الزواج كما سيطلب منك ان تفي ديونه المتراكمة.»

تذكرت جيسيلدا في تلك الاثناء أمراً، فقالت له: «نسيت أن أقول لك بان اللورد ويلينغتون سيزورك بعد غد في الساعة الثالثة بعد الظهر، هذا ما أبلغني به خادمه.»

هتف الماركيز قائلاً: «اللورد؟ هل هذا يعني انه وصل؟»

أجابت جيسيلدا: «نعم ودون توقع. وقبل ان تُنصب أقواس النصر له في الساحات. وهذا مما يجعلني أشكّ فيما لو كُتبت له أيضاً الكلمة الترحيبية به.»

ضحك الماركيز وقال: «من المؤكد ان ذلك سيربك الكولونيل. لقد قال لي بانه استدعى العديد من المستشارين لينظموا حفلة الاستقبال للورد.»

قالت جيسيلدا: «ان اللورد ما زال يريد افتتاح صالة الاجتماعات الجديدة.»

ابتسم الماركيز قائلاً: «انني متأكد على أي حال بأنهم سيرحبون به بالطريقة المناسبة حتى لو وصل بهذه الصورة المفاجئة. كما انني انتظر بشوق مقابلته وستتمكني أنتِ أيضاً من رؤية محرّر اوروبا.»

ارتعدت جيسيلدا من ذلك ثم قالت بعد لحظات: «اعذرني يا سيدي، فكما قلت لك سابقاً، لا أرغب في القيام بذلك.»

فسألها الماركيز: «هل أنت جادة؟ أنا لا أصدق ان هناك أحداً لا يرغب في مقابلة اللورد، خاصة وانه أنقذ العالم من نابليون.»

أجابت جيسيلدا بصوت ضعيف: «انني لا أشك أبداً ببطولاته العسكرية، لكنني لا أستطيع... وان أقابله بنفسي.»

صرخ الماركيز قائلاً: «لكن لماذا؟ لماذا؟ لا بد أن لديك تفسيراً لهذا الرفض.»

أجابت جيسيلدا: «آسفة، فأنا لا أستطيع أن أمنحك هذا

التفسير، ويجب أن تعرف انك لو استدعيتني خلال زيارته، فأنا لن احضر.»

ثم خرجت من الغرفة دون ان تنتظر جواب الماركيز. أغلقت الباب بهدوء، وتركته في ذهول تام من تكتمها الدائم.

لا يمكنه أن يتصوّر لماذا قد ترفض جيسيلدا مقابلة اللورد ويلينغتون، فلو كان لها سبباً وجيهاً ومقنعاً، فهي من المؤكد سترفض قوله له.

ان الأمر برمته يبدو غير مفهوم وواضح، وقد جعله ذلك يشعر بالتوتر والغضب لأنه ولأول مرة لم يستطع الكشف عن قضية غامضة. فلو كانت جيسيلدا على علم وخبر بمدى غضبه، لتجاهلته كلياً، لأنها كانت أيضاً ستتابع ما ثرثرت به حول كل ما شاهدته في الينابيع المعدنية وعن استياء الناس لوصول اللورد وزوجته وابنائهما دون اقامة أقواس النصر والاحتفال الذي يُقام عادة في مثل هذه المناسبات.

ما قالته أكده هنري سومركوت الذي جاء مباشرة بعد ذهابها، فقد أبلغه عن مدى الاستياء الشعبي الذي أحدثه وصول اللورد المفاجيء.

ومما قاله هنري: «ان الكولونيل غاضب جداً مني، لكن الذنب ليس ذنبي، فالقائد بنفسه أخبرني بأن اللورد سيصل في العشرين من هذا الشهر، فمن أين لي أن أعرف بانه سيغيّر رأيه ويأتي في الثامنة عشر؟»

هدّأه الماركيز قائلاً: «سيهدأ فيتز قريباً من ثورته عليك. على أية حال، سيجعله هذا الأمر يتوقف عن التدخل بشؤوني الخاصة.»

فقال هنري متسائلاً: «ماذا تعني؟»

«لقد علّم جيسيلدا أن تقوم بأشياء لا أرضى عليها.»

«أمر غريب حقاً، فأنا لم أعلم يوماً أن الكولونيل قد يقوم بمثل هذه الحماقات.»

«لكنه ها قد قام بواحدة الآن، وسأواجهه بذلك عندما أراه.»

فعاد هنري يقول: «ما زلت لا أصدق ذلك، وهو المعروف بمدى حدة ذكائه، خاصة بعد تلك المسرحية التي قام بها وقد صفق له الجمهور أكثر من غيره.»

فسأل الماركيز غير مصدق: «هل أجاد ذلك الدور حقاً؟»

«نعم وأكثر مما تتصوّر.»

«يدهشني أن يمثل غريمالدي المحترف مع هاوٍ مثل الكولونيل.»

«لقد عرفت أيضاً بأنه دفع لغريمالدي مكافأة بمثابة تعويض عن ذلك وقيمتها مئة جنيه.»

فقال الماركيز: «على أية حال، أتمنى من فيتز أن يترك مسرحيتي لي وأن لا يلعب دوراً فيها.»

أجاب هنري مطمئناً: «إنه سيكون منشغل جداً بوجود اللورد هنا، ولن يكرر ذلك.»

شعرت جيسيلدا بنوع من الذنب لرفضها بغباء مقابلة لورد ويلينغتون، لذلك فقد طلبت للماركيز عشاء خاصاً الليلة ما بعد زيارة الساعة الثالثة من بعد ظهر ذلك اليوم.

لقد تباحثت بأمر العشاء مع الطبّاخ واختارت الأنواع التي يستطيبها الماركيز والذي كان قبل الآن قد ترك لها حرية

اختيار وجباته، هذا بالرغم من انه أحياناً كان ينتقدها عندما لا يستحسن اختيارها.

لقد قال لها مرة: «على كل امرأة أن تتعلم كيفية اختيار أصناف الطعام.» وهذا ما حصل بالفعل، لأنها لاحظت على نفسها انها اكتسبت هذا الأمر بالإضافة إلى العديد من الأمور الأخرى منذ مجيئها إلى شلتنهام.

تأخرت جيسيلدا يوم زيارة اللورد الماركيز عن تعمد، وعندما عادت، عرفت من الخدم بأنه غادر عند الساعة السادسة، وبما ان عشاءه كان في الساعة السابعة والنصف، فكرت أن تحضر إليه قبل هذا الموعد بعشر دقائق.

كانت تأمل أن يكون اللورد قد أزال استياء واستعاض الماركيز بزيارته له لأنه من المؤكد انهما تحدثا بتجاربهما خلال الحرب.

طرقت الباب بلطف ثم فتحته ودخلت إلى الغرفة التي خلت من الماركيز، فوقفت تحدق في سريره بذهول تام.

مشت في الغرفة باتجاه الباب الآخر المفتوح الذي ينفذ إلى غرفة الجلوس والتي لم تدخلها مرة قبل الآن.

لقد كانت الغرفة أنيقة أعجبت جيسيلدا، فنوافذها واسعة تطلّ على الحديقة الخلفية لهذا المنتجع، حتى انه بالامكان رؤية تلال مالفن الرائعة.

كان الماركيز يقف أمام لوحة بديعة، فلاحظت جيسيلدا انه ما يزال غاضباً منها لعدم اعطائه سبباً مقنعاً برفضها مقابلة اللورد.

ثم قال لها بصوته العميق حين وجدها تقف صامتة: «مساء الخير يا جيسيلدا.»

وعندما لازمت الصمت ولم ترد التحية تابع يقول: «انك مندهشة لرؤيتي خارج السرير! لكن هل من المعقول ان استقبل قائدي وأنا تحت الأغطية؟ على أية حال، لا أنكر انني عانيت الأمرين بارتداء ملابسي لاستقباله بمظهر لائق بعد مكوثي الطويل في السرير.»

سألته جيسيلدا بصوت منخفض: «أرجو أن لا يكون قد أتعبك ذلك كثيراً.»

«ألن تمتدحي مظهري؟»

«تبدو رائعاً... كما أكيدة انك تعرف ذلك، لكن ما يقلقني هو انك قد تكون قد استعجلت الأمور بنهوضك من السرير.»

فقال الماركيز: «كان أملي أن أدهشك، وقد نجحت في ذلك. على كلٍ، لقد قال نيول ان بامكاني مغادرة السرير طالما لن أغيب عنه كثيراً.»

«أليس من الأفضل لك أن تتناول العشاء في السرير؟»

أجاب الماركيز بحزم: «سنتعشى هنا، كما انني عرفت بانك اخترت وجبة خاصة لهذه المناسبة. انك والحق يا جيسيلدا تملكين حدة الادراك.»

تكلم بشيء من السخرية وكانت تدرك بانه يعلم لماذا تعبت في اختيار أصناف طعام العشاء.

فقالت بسرعة: «اجلس، يجب أن لا تقف إلا إذا كنت مضطراً لذلك، فأنا أعرف ان السيد نيول لا يوافقك على هذا الشيء.»

جلس الماركيز مذعناً على الكرسي الوثير قربه، كما جلست جيسيلدا.

ثم قالت بعد لحظات: «لم يخطر ببالي قط انك تنوي مغادرة السرير وارتداء ملابسك.»

أجاب الماركيز: «قررت ذلك بيني وبين نفسي بعد ان عرفت بزيارة الورد لي، لكن في الحقيقة، كنت أفكر بهذا الأمر منذ بضعة أيام لأنني شعرت بانني أتماثل للشفاء.»

فكرت جيسيلدا بعد ان سمعت كلامه بانه سيعفيها من خدماتها له، فأحبت أن تستفسر منه ذلك، لكن الفرصة طارت منها تلك لأن الخدم دخلوا فجأة ومعهم أطباق الطعام.

شعرت جيسيلدا بنوع من الفخر والاعتزاز بنفسها عندما بدا الماركيز مرحاً يحاول اضحاكها، فقد أخذ يخبرها قصص الحروب التي خاضها، كما حدثها عن بيته في اوكفورشاير والتحسينات التي سيحدثها فيه حالما يستعيد نشاطه ويعود إليه.

ومما قاله أيضاً: «توفي والدي عندما كنت في البرتغال فعدت إلى الديار لكن لفترة قصيرة لكي أعين وكيلاً على المنزل والممتلكات، انما هناك العديد من الأمور التي لا يمكن لأحد أن يقوم بها سواي.»

فقالت جيسيلدا: «سيكون الأمر رائعاً خاصة وانك أصبحت تملك كل شيء.»

وافقها الماركيز قائلاً: «هذا صحيح، فقد كان هذا أملي دائماً وكم كنت أتوق إلى ذلك اليوم الذي أضع فيه أفكاري الجديدة في الأمور الزراعية المباشرة في تنفيذها، هذا بالإضافة إلى التحسينات في المنزل.»

«وهل يحتاج منك إلى ذلك؟»

«هذا ما اعتقده، كما ان هذا ما قام به كل الماركيز جديد في ليندهرست... أو لنقل أن زوجاتهم هنّ من فكرْن بذلك.»

تابع الماركيز يتكلم ويتكلم، لكن جيسيلدا كانت شاردة تفكر بالمرأة التي قد تتزوجه، مما لا شك فيه، انه وبعد تلك السنوات الطويلة التي أمضاها في الحرب، يرغب في الاستقرار في بلدته مع زوجة تسعده وتساعده على إدارة شؤون مزارعه.

قال الماركيز عندما أوشكا على الانتهاء من الطعام:

«هل لديك أية مشاريع لهذه الليلة؟»

أجابت جيسيلدا: «يريد السيد ليند أن يدعوني إلى إحدى الحفلات، لكنني أفضل أن أوي إلى فراشي.»

فسألها الماركيز: «وهل هذه الحفلة ستقام في الصالة الجديدة؟»

«نعم.»

«هل حقاً سترفضين مثل هذه المناسبة الفريدة؟»

«سألبي دعوته... إذا كنت تعتقد ان عليّ ذلك... لكن من ناحيتي، أفضل الاستراحة في غرفتي.»

تساءل الماركيز بدهشة: «كيف يمكنك قول مثل هذا الكلام؟ انني وحالما ننتهي من تناول العشاء سأذهب إلى السرير، وبما انني أشعر بالتعب، فإنني سأغرق في نوم عميق. لكنك يا جيسيلدا ما زلت شابة ومن في سنك، يجب أن تشارك مثل هذه الحفلات.»

قالت جيسيلدا: «سيكون هناك حشد كبير، والمتوقع حضوره، ألف وأربعمائة شخص و...»

توقفت فجأة عن الذي كانت على وشك قوله، وهو انه لا رغبة لها بمرافقة جوليوس ليند، ذلك لأنها خشيت أن تثير عصبية الماركيز من ملاحظتها هذه.

هذا بالإضافة، فهي ليست سوى خادمة هنا تنفذ له ما خططه لها، ويكفي ما سببته من سخط عليها حين رفضت مقابلة لورد وليلينغتون.

لكن كيف بإمكانها أن تفسر انه ليس في وسعها أن تكون حاضرة عندما تحتشد الشخصيات البارزة من الطبقات الهامة من شلتنهام وغيرها؟

وبينما كان الماركيز ينتظر منها قول أي شيء، تمتمت أخيراً: «لقد قال السيد ليند... انه سيأتي لاصطحابي بعد الساعة التاسعة... واللورد وزوجته ينتظر حضورهما في الساعة العاشرة.»

فقال الماركيز عندها بعناد: «إذاً، عليك أن تكوني جاهزة عند حضور جوليوس.»

قالت جيسيلدا بتردد: «كم أتمنى... لو يمكنك المجيء معي.»

نظر الماركيز إليها متفحصاً كأنما يريد أن يعرف أن ما قالته كان من باب الأدب والاحترام، أو انها كانت تعني حقاً ما قالته.

ثم قال: «لقد كبرت على مثل هذه الأمور.»

أجابت جيسيلدا: «ما قلته أمر سخيف كما تعلم، وهذا ما يتفوّه به المرضى عادة عندما يتماثلون للشفاء.»

فقال الماركيز بشيء من السخرية: «طبعاً تقولين ذلك من باب الخبرة في مثل هذه الأمور.»

أجابت جيسيلدا بجدية: «نعم، فكل شخص يشعر حين يكون مريضاً جداً، انه سيصعب عليه أن يعود إلى حياته الطبيعية حين يتماثل للشفاء، فينكمشون ويتعلقون بتلك الانزوائية والهدوء اللذين كانا يتمتعان بها في سريرهم، ويترددون بالقيام بخطوتهم الأولى إلى العالم الخارجي.»

«هل هذا هو شعوري على اعتقادك؟»

«بل أنا أكيدة من ذلك! فحين تبدأ بالتكلم عن كونك قد كبرت ولم تعد ترغب بالانضمام إلى الحفلات، تذكر دائماً بان مثل هذا الكلام دلالة على تماثلك للشفاء.»

ضحك الماركيز ثم قال: «أتقبل منك يا ممرضتي تحليلاتك المنطقية هذه.»

أكدت جيسيلدا قائلة: «هذا صحيح... أعدك بان ما قلته لم يكن سوى صحيحاً؛ ففي وقت قصير من الآن، ستتوق نفسك إلى مغادرة شلتنهام لتقوم بكل الأمور التي تريد القيام بها في منزلك، وربما قد تقبل العديد من المناصب في دیارك وذلك لأنك لم تعد بعد اليوم قادراً يلقي الأوامر.»

«على الأقل سأتحرر من القيود التي أنا فيها الآن وأتوقف عن تلبية ما يُطلب مني فعله.»

فسألت جيسيلدا بشيء من الكآبة: «وهل تعتقد بانني كنت أقيدك؟»

«بشكل رديء» أجاب الماركيز بينما كانت عيناه مبتسمتين، وعندما نظرت إليه لترى إذا كان جاداً في كلامه، أخذ يضحك.

ثم قال: «لقد تصرفت تماماً كما ينبغي على الممرضة أن تتصرّف، لكنني لست مهيأ بعد لأصرفك من خدمتي.»

رأى عينيها تشعان ببريق الأمل، ففهم ان هذا كل ما كانت تخشاه.

وتابع يقول: «سنتحدث في هذا الأمر غداً، ففي الواقع أشعر الآن بالتعب.»

قالت جيسيلدا: «طبعاً هذا مما لا شك فيه، فيا ليتك سمعت كلامي وتناولت العشاء في السرير.»

أجاب الماركيز: «ولكنني تمتعت بهذا التغيير حين تناولت الطعام إلى مائدة مع سيدة مثلك.»

نهض عن كرسيه بعد أن قال ذلك بصعوبة، فقالت جيسيلدا: «ان ساقك تؤلمك!»

اعترف قائلاً: «قليلاً، ولكن هذا ما كنت أتوقعه.»

أردفت جيسيلدا: «لما كان حدث ذلك لولا تهورك.»

خرجا من غرفة الجلوس إلى غرفة النوم حيث كان باتلي ينتظر وعندما شاهدهما قال: «آه يا سيدي، لقد طال بك المقام خارج السرير، فلو عرف الطبيب بذلك، ستورطني وجيسيلدا بمشاكل معه.»

أجاب الماركيز: «كف عن التذمر يا باتلي وساعدني بالوصول إلى السرير.»

أدرك باتلي كذلك جيسيلدا من نبرة صوته بانه مرهق.

وعندما همت جيسيلدا بالخروج تاركة الماركيز في رعاية باتلي، قال لها الماركيز: «اذهبي إلى هذه الحفلة فانا أريدك أن تتمتعي بوقتك، كما انها ستكون مناسبة قد لا تسمح لك الظروف برؤية مثلها.»

أجابت جيسيلدا بصوت منخفض: «سأذهب إذا كان هذا ما تريده.»

«عديني!»

«أعدك.»

لاحظت بعد أن وعدته بأن الماركيز غرق مباشرة في النوم.

ألقت جيسيلدا نظرة أخيرة إليه وهو مغمض العينين فرأت أنه لم يبدُ فقط متغيّراً، بل ان شيئاً مغايراً قد حصل بينهما منذ أن ترك سريره.

ولأول مرة بدأت جيسيلدا تفكر به ليس كمريض تقوم على خدمته، بل بطريقة أخرى، فأسرعت بالخروج وكأنها تخشى هذا الاحساس الجديد.

* * *

كانت الصالة الجديدة للحفلات تعج بالمدعوين لدرجة الاختناق، مما جعل جيسيلدا ترتاح نفسياً وأن لا تشعر بالخجل لارتدائها ذلك الثوب الأنيق ومن تأنقها بالجواهر، لأن جميع سيدات الحفلة كنّ يضاهونها تأنقاً وجمالاً بالحلى النفيسة.

وعند الساعة العاشرة تماماً، دخل لورد ويلينغتون مع زوجته، فاستقبل بالهتافات والتصفيق الشديدين.

همس جوليوس في أذن جيسيلدا: «كان ينبغي أن يكون ابن عمي تالبوت معنا الآن كي يقدمنا إليه.»

لم تقل جيسيلدا لجوليوس أنها رفضت مقابلة اللورد بعد ظهر هذا اليوم، بل بالمقابل، أخذت تتمشى بين الغرف

الفسيحة وهي لا تستطيع اخفاء دهشتها وروعتها، فأدركت أن الكولونيل كان على حق عندما أشار انه ينبغي بناء أبنية جديدة وفخمة في شلتنهام.

وفكرت ان تحفظ في ذاكرتها كل ما شاهدته هذه الليلة كي تخبر به الماركيز.

لقد اعتقدت قبل أن تصل إلى هذه الصالة الجديدة بأنها قد تكون بسيطة لا رفاهية فيها، لكن اعتقادها كان في غير مكانه حين أصبحت في الداخل، وبعد ذلك، اقترحت على جوليوس أن يخرجا من بين هذا الجمع الخانق ليتفرجا على باقي أجزاء هذا المبنى الجديد.

وما كادا يخطوان بضعة خطوات حتى التقيا بالكولونيل المفرط في تأنقه، فحيّاهما باحترام ثم قال لجوليوس: «أتسامل يا بنيّ لو تتكرم وترافق السيدة دنينغتون التي تنزل ضيفة عندي؟ فلا مجال لي بوجود اللورد معنا أن أرافقها.»

لكن قبل أن يتمكن جوليوس من الاجابة على طلبه، قدمه الكولونيل إلى السيدة دنينغتون، ووجدت جيسيلدا نفسها بمفردها مع الكولونيل.

ثم قال لها: «أريد محادثتك، هيا نجلس، فأنا ما زلت واقفاً منذ الصباح الباكر.»

فقالت جيسيلدا: «لا بدّ وانك قمت بمجهود كبير من أجل استقبال اللورد.»

أجاب الكولونيل: «هذا ما حصل فعلاً، وأفخر أن أقول لك بأنني نجحت في ذلك، ويُعتبر قدوم اللورد إلى شلتنهام بمثابة أكبر دعاية لها.»

وافقته جيسيلدا: «انني متأكدة من ذلك.»

فقال الكولونيل: «لا أريد أن أتحدث عن شلتنهام في الوقت الحاضر بل عنكِ أنتِ.»

دهشت جيسيلدا قائلة: «عني أنا؟»

«لقد كنت أراقبك خلال الأيام الماضية، واعتقد بأنك ممثلة طبيعية.»

حدقت جيسيلدا بالكولونيل والدهشة لا تفارقها، بينما تابع هو يقول: «هل فكرت بما قد تقومين به عندما يستغني الماركيز عن خدماتك له كممرضة؟»

لازمت جيسيلدا الصمت، فهذا السؤال لطالما أقلقها وشغل بالها، لكن ما لم تتوقعه قط، هو انه لم يخطر ببالها أن أفكارها قد تنقل إلى الكولونيل نفسه.

لكنها أجابت بعد قليل: «انني متأكدة... بانني قد أجد عملاً ما.»

«هل تريدين وظيفة ما؟»

«نعم... بالطبع.»

أجاب: «هذا ما ظننته، فلو لم تكن حاجتك كبيرة لما عملت كخادمة في هذا المنتجع.»

لم تقل جيسيلدا شيئاً، لكنها شعرت بانه كان قاسياً معها لأنه ذكرها في هذه اللحظات التي كانت تأمل فيها أن تبدو بغاية الأناقة، بعملها القديم كخادمة وذلك قبل أن تعمل ممرضة الماركيز.

تابع الكولونيل يقول: «عندما يرحل الماركيز، سيكون هناك مكان لك في المسرح يا جيسيلدا.»

نظرت إليه باستغراب قائلة: «تقول في المسرح؟»

أجاب: «هذا ما قلته، ان الممثلين الذين يعملون لديّ ليسوا سوى هواة، لكنني أكافئهم بسخاء، لذا فأنت لن تبقي بلا مال عندما ينتهي دورك من خدمة الماركيز.»

ما قاله أخيراً جعل جيسيلدا تنظر إليه بتساؤل شديد، لكن الكولونيل تابع يقول: «انك جذابة للغاية؛ هذا أكثر ما يمكنني قوله الآن، لكنني سأعبّر لك أكثر من ذلك عندما تتحررين من قيودك مع الماركيز.»

ولأنها أدركت ما كان يقصده من كلامه، علت حمرة الخجل وجهها، وقالت بتردد: «لا... لا يمكنني أن أصغي... لا يمكنني أن أفكر...»

لكن الكولونيل قاطعها ليقول: «لا حاجة لك لأن تقولي شيئاً، أقدّر ما أنتِ عليه الآن، وطبعاً أقدّر ولاءك وإخلاصك للماركيز في الوقت الحاضر. لكن يا عزيزتي يجب أن تثقي بصدق كلامي وبالمنصب الذي سأقدمه لك في المستقبل بدلاً من كونك خادمة في منتجعي.»

وقفت جيسيلدا وقالت بصوت خائف يرتجف: «أعتقد يا... سيدي، ان عليّ... أن أعود إلى المنزل.»

فقال لها الكولونيل: «دعي كل شيء لي، ان مستقبلك سيكون جيداً، ولا يسعني الآن سوى أن أنتظر اللحظات التي يمكنني محادثتك في هذا الشأن.»

ابتعدت جيسيلدا عنه دون أن تتفوّه بكلمة واحدة وكان جوليوس يقترب منها ومعه السيدة تشينغتون.

كان يرافقها إلى أقرب كرسي وعندما جلست ودعته باحترام ليتحوّل بعد ذلك إلى جيسيلدا.

ثم قال لها: «من بين الجميع اختارني الكولونيل وحدي

لأرافق تلك السيدة المملة! فهي لم تتحدث سوى عن محاولاتها الكثيرة التي أتاحت لها فرص المجيء إلى هنا.»

لكن جيسيلدا قالت له: «أرغب في العودة.»

أجاب جوليوس: «ويسعدني أن أرافقك في طريق العودة، فلو سألتني رأيي، أجبتك أن مثل هذه الحفلات تزهق نفسي وتزعجني!»

كان في الخارج العديد من عربات الخيل للاستئجار، وساعدها جوليوس للدخول إلى واحدة منها. وعندما ابتعدت بهما العربة قال لها: «آسف لأنني أضعت هذه الليلة هباء، كما أن تصرف الكولونيل يَصعب تبريره.»

فقالت جيسيلدا بأدب: «إنني متأكدة من أنه لم يقصد سوى الخير.»

انما بينها وبين نفسها كانت توافق على كلامه، فقد تصرف الكولونيل بطريقة سيئة أكثر مما يتصوره جوليوس.

وفكرت: من أين له الجرأة؟! من أين له الجرأة لأن يقترح عليّ مثل هذه الأمور؟

تذكرت في تلك اللحظات عندما طلبت من الماركيز وهي في حالة يائسة أن يساعدها في الحصول على مبلغ خمسين جنيهاً ثمناً للعملية الجراحية لأخيها.

فسألت نفسها وهي تشعر بالخجل وعدم الرضى: «أهذا ما كنت أطمح إليه؟»

لم تكن المسافة إلى المنزل طويلة، لهذا بدأ جوليوس خلالها يتكلم دون أن تتمكن جيسيلدا من الاصغاء إليه.

لكن عندما توقفت العربة أمام باب المنزل، سمعته عندها فقط يقول: «هل تعدينني؟ هل حقيقة تعدينني بذلك؟»

سألته: «بماذا؟»

أجاب: «لقد قلت لي منذ قليل بأنك قد تشاركينني العشاء في إحدى الايام.»

«هل قلت ذلك؟»

«طبعاً قلت ذلك، والآن لا يمكنك أن تخلفي بوعدك خاصة بعد أن قطعته. سأطالبك بهذا الوعد أيتها السيدة باروفيلدا! ذلك لأنني أريد محادثتك دون ازعاج أي كان.»

جاء الخادم في تلك اللحظات ليفتح باب العربة، فقالت جيسيلدا: «سأفكر بهذا الأمر.»

«هل يمكنني أن أتصل بك غداً في الساعة العاشرة؟»

«نعم بالطبع.»

فتابع يقول: «لكن عليك أن تحددي الموعد الذي وعدتني به.»

لم تجب جيسيلدا وابتعدت عنه وهي تشعر بأنها تخلصت وتحررت من قيوده، لكنها لم تتحرر من الكولونيل والعروض التي عرضها عليها والتي كلما فكرت بها، ارتعدت فرائصها خوفاً.

وقالت بينها وبين نفسها: إنني أكرهه، أكرهه وأكره جوليوس ليند... في الحقيقة أكره كل الرجال!

لكنها أدركت بعد قليل ان كلامها غير صحيح، فهناك رجل لم تكن تكرهه... رجل لم يصدمها ولم يجلب الخوف إلى نفسها.

رجل تريد أن تطلعه الآن وفي هذه اللحظات عن كل ما جرى معها.

ثم عادت تقول بينها وبين نفسها بتأنيب: لكن هذا أمر يجب أن لا أقوم به.

ان الكولونيل صديقه ولا تريد أن تسبب المشاكل بينهما، ليس فقط لأنهما صديقان، انما آخر ما عليها أن تفكر به هو طلب الاحسان من الماركيز.

تابعت تكلم نفسها: «يجب أن أكون قوية وشجاعة لأتخطى هذه المرحلة دون مساعدته.»

لكنها وعندما فكرت بالمستقبل من دون الماركيز، شعرت بالخوف واليأس الشديدين.

www.liilas.com
وحده قاضيه

الفصل الخامس

أرسلت أشعة الشمس خيوطها الذهبية عبر نافذة غرفة الماركيز، فأضفت لمعناً وبريقاً على أطباق طعام الفطور الفضية.

لاحظت جيسيلدا حالما جلست، قرص العسل بشهده وقالب الزبدة الكامل الدسم الذي من دون شك قد جيء به من مزارع الكولونيل بيركلي.

كما لاحظت أيضاً كم تحسنت صحة الماركيز، فالشحوب الذي كان يعلو وجهه بات شبه ملاحظاً، فقال لها: «إنني في الواقع، أشعر بالجوع هذا الصباح.»

ابتسمت جيسيلدا قائلة: «إنها علامة جيدة.»

تابع الماركيز قائلاً: «لكن ليس كجوعي للعودة إلى دياري، فهناك كنت أمتطي صهوة جوادي في الصباح الباكر لأعود بعد ذلك إلى تناول فطور الصباح بشهية ونهم.»

فسألته جيسيلدا: «هل تملك جياداً أصيلة في مقاطعتك لينيد؟»

أجاب الماركيز: «جياد اصيلة جداً، لكنني عازم على شراء المزيد منها، لم يكن والدي يهتم بالخيل لكنني على عكسه تماماً، وحالما أشعر بأنني عدت إلى صحتي السابقة، ساشارك في اكثر من مباراة.»

كان في نبرة صوت الماركيز حماساً أشبه بالشباب

الطائش، فشعرت جيسيلدا بألم في نفسها، ذلك لأنها لن تكون معه ولن تشاركه في مخططاته المستقبلية هذه.

وتساءلت فيما لو تخطر على باله عندما يمتطي صهوة جواده في نزهته عبر مقاطعته الشاسعة الأطراف، لأنها من ناحيتها لن تنساه وستفكر به في كل لحظة ستكون بعيدة عنه.

يبدو أنه سيعيش في مخيلتها وفي ضميرها وبأنها لن تتمكن من التحرر من ذكراه. وأدركت بعد أن تصورت المستقبل من دونه، بأنها ومن دون أدنى شك تحبه.

إنها لم تدرك قبل الآن أن ما كانت تشعر به تجاهه هو الحب.

فقالت بينها وبين نفسها: مهما حصل، يجب ألا يعرف بأنني أشعر تجاهه بمثل هذا الشعور.

ثم قالت وهي تقصي بأفكارها بعيداً: «ما هي مشاريعك لهذا اليوم؟»

أجاب الماركيز: «في الواقع، أنا لم أقرر بعد.»

دخل الخادم في تلك الأثناء حاملاً رسالة وضعت على طبق من الفضة. أعتقد الماركيز في بداية الأمر بأن الرسالة تخصه هو، لكنه دهش حين قدمها الخادم لجيسيلدا.

تناولت جيسيلدا الرسالة ثم قالت بأدب: «هل يمكنني أن أفضها؟»

أجاب الماركيز: «أرجوك أن تفعلي ذلك، لأنني أشعر بالفضول الشديد.»

فضت جيسيلدا الرسالة التي كانت من جوليوس وأخذت تقرأ:

لقد وعدتني بأن تتناولي العشاء معي في احدى الامسيات، لذلك فقد فكرت بأن يكون هذا المساء.

يمكنك أن تجيبي على هذا الطلب عندما تذهب هذا الصباح إلى الينابيع المعدنية، لكنني كنت أجد دائماً صعوبة بالتحدث معك عندما يحتشد الناس من حولنا، فلا يمكنك أن تتصوري كم أتشوق لأن أسألك سؤالاً خاصاً والذي لا يمكنني طرحه، إلا عندما نكون بمفردنا ودون ازعاج أحد.

أرجو ألا تخيبي أمل الذي يكن لك كل احترام وتقدير.

جوليوس لينِد

بعد أن انتهت جيسيلدا من قراءة الرسالة، أعطتها للماركيز دون أن تعلّق بكلمة واحدة.

قرأها الماركيز وكل ما قاله بعد ذلك: «سيكون جوابك بالنعم؟»

«هل... ينبغي مني... أن أذهب؟»

أدركت بعد أن طرحت هذا السؤال بعدى سخافتها، وكأنها قد نسيت بأنها فوضت بلعب هذا الدور إلى أن تسمع من جوليوس طلبه بالزواج منها وهذا ما سيفعله بالتأكيد هذا المساء.

قال الماركيز بلهجة آمرة: «وافقي على طلبه.»

فقالت جيسيلدا للخادم بإذعان: «قل لحامل هذه الرسالة بأن يبلغ جوليوس لينِد، انه يسعدني تلبية دعوته.»

تراجع الخادم باحترام ثم غادر المكان تاركاً الماركيز وجيسيلدا غارقين في الصمت.

ثم قطع الصمت ليقول: «إنك تعلمين يا جيسيلدا الدافع

الرئيسي الذي أجبرنا على القيام بهذه المسرحية، أولاً لابعاد جوليوس عن زواجه من الآنسة كلتربائك، وثانياً كي نجعله يشعر بسخافته ولأن نلقنه درساً بعدم ملاحقة السيدات الثريات.»

فسألته جيسيلدا: «هل تعتقد... اننا سنشعره بالذل حين نجعله يطلب الزواج مني، وبأن هذا سيمنعه من المحاولة مجدداً من ملاحقة أرملة ثرية أخرى في المستقبل؟»

أجاب الماركيز مفكراً: «ربما لا، لكن ما أعرفه، أن ولا رجل يرغب أن يجد نفسه مغفلاً، لذلك فعندما يكتشف جوليوس بأنك لا تملكين قرشاً واحداً، سيدرك كم جعل من نفسه مسخرة أمام الجميع.»

فقالت جيسيلدا: «وهل تتوقع مني أن أخبره بذلك؟»

أجاب الماركيز: «لا، بالطبع لا. وإذا طلب يدك هذا المساء، وهذا من دون شك سيفعله، فقولي له ان يبحث هذا الامر معي، أو مع الكولونيل، خاصة وأنه يعلم بأنه قريبك.»

فقالت جيسيلدا بحدة: «لا... ليس مع الكولونيل!»

فسألها الماركيز بدهشة: «ولما كل هذه الحدة؟»

«إنني... لا أرغب أن يتدخل... الكولونيل بمسائلي الشخصية.»

نظر الماركيز إليها متفحصاً وكأنه غير متأكد بأنه سمع هذا منها، ثم قال: «حسناً، سأكلم أنا جوليوس. يمكنك أن تقولي له انه لا يمكنك الزواج منه قبل أن أعلن بنفسي موافقتي على ذلك، سيأتي الي وعندها سأقول له كل ما أعتقده به.»

كان في نبرة الماركيز عندما تكلم، نبرة الرضى التام،

وبعد لحظات قالت جيسيلدا بتردد: «أعرف... أن جوليوس قد تصرف... بشكل سيء... أعرف أنه... أخذ منك مبالغ كبيرة من المال... لكن في الوقت نفسه... إنني متأكدة بأن ذلك سيؤذيك بقدر ما سيؤذيه حين تكون انتقامياً.»

دهش الماركيز وقال: «انتقامياً؟ اهذا ما تعتقدينه بي؟»

أجابت جيسيلدا: «لا... ليس بالتمام... إنما لكونك قوي جداً... قوي بكل ما تقدم على القيام عليه، كما أنك تملك الكثير.»

قال الماركيز: «كما لجوليوس الكثير أيضاً. وعليك التأكد بأنني لست من الصنف الذي يحتقر الفقير، فلجوليوس ثروة كبيرة ورثها عن والده عندما بلغ الواحد والعشرين من عمره.»

توقف قليلاً قبل أن يتابع: «لقد انفق كل هذه الثروة الطائلة في مدة لا تتعدى السنتين، ومن ثم انفق كل ما تملكه والدته. فهل تجدين في ذلك شيئاً مشرفاً وجديراً في الاحترام؟»

«لا... أنك على حق... إنما في الواقع ليس بمقدوري سوى الشعور بالشفقة مع أي فقير.»

رق وجه الماركيز وقال: «افهم ذلك منك يا جيسيلدا، وهذا ما أتوقعه منك أن تشعري به. لكن أنصحك بألا تضيعي شفقتك على شاب مثل جوليوس، فلو كنت حقاً ثرية جداً كما يعتقد، فهو من المؤكد سيبدد ثروتك في أعوام قليلة، وبعدها لن يتردد في هجرك ليلاحق امرأة ثرية أخرى.»

«اتساءل لماذا قد يكون بعضهم سيئاً لهذه الدرجة؟»

أجاب الماركيز: «باستثنائك أنت بالطبع.»

ابتسمت جيسيلدا وقالت: «اتمنى لو ذلك كان صحيحاً.

فأنا لست كما تعتقدني، لأنني أحياناً كثيرة أكره الناس بشدة.»

«مثل كرهك للورد ويليغتون.»

أدرك حين رأى البغتة في وجه جيسيلدا، بأنه أصاب ما كان يرمي إليه.

ثم سأل ببطء: «هل تكرهينه إلى هذه الدرجة؟ وهل من عديم الفائدة أن أسأل السبب لذلك؟»

«نعم... أصبت.»

فقال الماركيز عندئذ: «إذاً، دعيني أقول لك شيئاً واحداً، إنني عازم على كشف أسرارك مهما تمكنت بذكائك أن تخفيهم، لذا ولأنني صممت على ذلك، سأنجح بهذا المسعى.»

نظرت جيسيلدا إليه دون أن تجيب، فرأى الماركيز في ملامح وجهها شيئاً لم يفهمه.

ليس الخوف وحده هو الذي شاهده، إنما شيئاً غريباً آخر، وبينما كان يتساءل ما عساه أن يكون، فتح الباب ليدخل منه الكولونيل بيركلي.

ثم قال هاتفاً: «صباح الخير يا جيسيلدا، صباح الخير يا تالبوت، يسعدني أن أراك تتناول الفطور خارج السرير.»

أجاب الماركيز: «إنني حقاً أستمتع بذلك، يدهشني أن تكون أنت زائري الأول في هذا الوقت المبكر.»

قال الكولونيل: لدي الكثير لأقوم به هذا اليوم، ولقد جئت لأطلب منك أن تكون ضيفي هذه الليلة.»

سأله الماركيز: «أين؟»

«في المسرحية التي سأقدمها خصيصاً للورد واورلينز،

فأنت تعلم أنه موجود الآن في شلتنهام، كما أنه طلب بنفسه أن يرى العرض الجديد الذي سأقدمه.»

فسأل الماركيز مبتسماً: «مسرحية السلاح المقنع.»

أجاب الكولونيل مبتهجاً: «إذاً تتذكر ذلك!»

ثم جلس إلى المائدة، فتقدم الخادم وسكب له فنجاناً من القهوة.

تابع الكولونيل يقول: «ستكون سهرة مسلية خاصة مع حضور مميز، وأنا أكيد بأن ستسعد فيها يا تالبوت. هذا بالاضافة، إلى أن ماريا فوت ستقوم بدور البطولة وأريدك أن تراها.»

عندما لم يجب الماركيز، التفت الكولونيل إلى جيسيلدا ليسألها: «هل هو جيد بما فيه الكفاية كي يخرج هذه الليلة أيتها الممرضة؟»

تكلم بطريقة مازحة، لكن كان في عينيه تعبيراً جعل جيسيلدا تشعر بالاحراج، فأجابت وهي تنظر إلى الماركيز:

«إن السيد نيول راش كل الرضى عن صحة سيدي.»

«في هذه الحالة عليك أن تستريح يا تالبوت بعد ظهر هذا اليوم لتحضر إلى المسرح تمام الساعة الثامنة. وإذا لم تكن تشعر بالتعب بعد انتهائها، يجب أن تتناول طعام العشاء معي ومع ماريا، لكننا لن نؤخرك. بالمناسبة، لقد طلبت من هنري سومركوت أن يرافقك.»

قال الماركيز عند ذلك: «إنك لم تدع أمامي أي خيار آخر سوى الموافقة.»

أجاب الكولونيل: «أريدك أن تراني في هذا الدور الجديد، فأنا وهذا ما أقوله دائماً لنفسي أجيده إجادة تامة،

رشف قليلاً من القهوة ثم تابع وكأنه تذكر شيئاً هاماً:

«عليك أن تحضر جيسيلدا معك في المرة القادمة ولكن ليس الليلة. بما أنك لا تستطيع صعود السلالم، ستجلس في الغرفة القريبة من المسرح من الناحية الخلفية والتي تسع لثلاثة أشخاص.»

قال الماركيز: «الذي يدهشني في أمرك أيها الكولونيل، بأنك تقوم بكل شيء بنفسك. فأنت تريد أن تكون الكاتب والمنتج ومدير المسرح والممثل الرئيسي، والذي يدهشني أكثر من كل ذلك، هو لماذا لا تقود الفرقة الموسيقية أيضاً.»

أجاب الكولونيل: «يا عزيزي تالبوت، لقد علمتني الحياة أنه إذا أردت أن أقوم بشيء كامل، علي أن أقوم به بكافة تشعباته بنفسي فقط. على العموم، إن المقاعد قد حجزت بأكملها، لذا أرجوك ألا تترك تلك الغرفة فارغة، لأنها ستبدو كضرس واحد مفقود في الفم.»

قال الماركيز: «بما أنني مضيفك، وبما أنني شاكر لك كثيراً عندما أرسلت بطلبي للحضور إلى شلتنهام، فلا يسعني سوى أن أشكرك الآن من صميم قلبي.»

فقال الكولونيل ساخراً: «يا له من خطاب بديع. والآن سأتركك كي تتابع تناول فطورك.»

نهض من مكانه وقال وهو ينظر إلى جيسيلدا: «أتوقع أن تمثل جيسيلدا دوراً في إحدى مسرحياتي في يوم من الأيام. وعندما يتم ذلك، ستكون أيها الماركيز من بين الحضور.»

نظر الماركيز إليه بدهشة بالغة، لكنه وقبل أن يتمكن من قول أي شيء، كان الكولونيل قد غادر الغرفة. ثم سمعا صوته وهو يكلم أحد الخدم في الرواق.

فسأل الماركيز: «ماذا كان يعني بقوله هذا؟»

ظهر على جيسيلدا الاحراج، ثم قالت بتردد: «في الليلة الماضية... عند افتتاح الصالة الجديدة... اقترح بما أنني أجدت تمثيل هذا الدور... أنه ربما قد امثل معه دوراً في المستقبل في احدى مسرحياته.»

تكلمت بصعوبة واحتارت في أمرها عندما أخذ الماركيز ينظر إليها متفحصاً.

ثم قال: «قال لك هذا؟ ولماذا لم تخبريني؟»

«لم أعتقد... أن الكولونيل جاد في كلامه.»

قال الماركيز: «إنه عادة جاد في كلامه خاصة إذا كان الأمر متعلق بمسرحه. لكن هل تحاولين القول انه سيقدم لك عملاً عند انتهاء خدمتك معي؟»

«... نعم.»

«هل لديك ادنى فكرة أنه قد يكون له سبباً آخر ليطلب منك ذلك؟»

خيم الصمت، فأدرك الماركيز أن جيسيلدا لم تفهم ما كان يقصده بكلامه، لكنها وبعد أن فهمت، علت حمرة الخجل وجهها وحولت نظرها إلى الحديقة.

تابع الماركيز يقول: «كم تشكي بالامر ولا لحظة واحدة.»

تمتمت جيسيلدا: «لم... أتوقع بأن هذا ما كان يعنيه.»

«لقد كان يعني حتما ذلك! دعيني أوضح لك الامر يا جيسيلدا، إلا إذا كنت توافقين على طلبه.»

«لا... بالطبع لا... لا نية لي أبداً بالموافقة.»

«إذاً، لماذا لم تطلعيني على ذلك؟»

خيم الصمت من جديد، فقال الماركيز بعد ذلك: «أريدك أن تردي على سؤالي هذا».

أجابت جيسيلدا بحيرة: «أعتقدت... أن ذلك... قد يزعجك... فهو صديقك... كما أنك تنزل ضيفاً في منتجعه».

«كنت تفكرين بي؟».

«نعم... لم أرد أن تكون غاضباً أو منزعجاً... خاصة عندما بدأت صحتك تتحسن بصورة ملحوظة».

فقال الماركيز: «دعيني أوضح لك شيئاً واحداً. انك في الوقت الحاضر في خدمتي، ولن تنتهي هذه الخدمة معي إلا عندما أجد حلاً جذرياً مع جوليوس».

لم تجب جيسيلدا، فقال بعد لحظات: «من الافضل أن تذهبي الآن لتهيئي نفسك للخروج معه إلى الينابيع المعدنية، وسوف نتباحث بمستقبلك في وقت لاحق».

فقالت جيسيلدا: «نعم يا سيدي... وشكراً لك».

نهضت من مكانها وأسرعت بالخروج هرباً من هذا الموقف المربك والحرج.

رمى الماركيز المحرمة الورقية بعصبية، ونهض ليخرج على مهل إلى الحديقة ليستنشق الهواء العليل وكان ما جرى له من حديث مع جيسيلدا، قد أطبق على صدره.

• • •

كانت الينابيع المعدنية تعج كعادتها بالوافدين إليها، فشعرت جيسيلدا بالراحة النفسية، فجوليوس ووسط هذه الكثافة من الناس لن يكلمها بالموضوع الذي يشغل رأسه.

لقد شعرت منذ أن غادرت الماركيز بشيء يطبق على

صدرها، لأنها لم تكن تحتمل التفكير بأن الماركيز اعتقد بأنها قد توافق على عرض الكولونيل، وهو الآن من المؤكد غاضب منها، وها هي الآن تتكلم مع جوليوس بصعوبة وعناء بسبب أفكارها التي تتعلق بالماركيز.

حين وصلا إلى الكافيتيريا، قدم جوليوس لجيسيلدا كوباً من المياه المعدنية قائلاً لها: «تبدين في غاية الاناقة أيتها السيدة باروفيلد».

أسرعت تقول وقد شعرت بالخجل من كلامه: «من الغرابة أن تجد كل هذا الجمع قد جاء لوجود بعضاً من طير الحمام».

دهش جوليوس وسألها: «طير الحمام».

فبادرته جيسيلدا بسؤال آخر: «ألم تسمع بتلك الاسطورة؟ إن هذه الاماكن اكتشفت منذ مئة عام حين لاحظوا طير الحمام يحوم حول الينابيع المعدنية».

لم يبدُ على جوليوس الاهتمام لحديثها، لكن جيسيلدا تابعت تقول: «كما وجدوا أن المياه غنية بالملح الطبيعي، لذا نشر أهالي شلتنهام هذا الخبر وأشاعوه في جميع الاقطار».

فعلق جوليوس قائلاً: «من المؤكد أن هذا الامر جاء بالثروة لأهل البلدة».

كان في نبرة صوته الحسد، فكرت جيسيلدا بعد أن لمست منه ذلك، أنه لا يسعد التفكير بشيء سوى المال والثروة.

ثم سألته وقد خشيت أن يتطرق إلى موضوع الزواج بعد أن رأت شاباً ذو لحية صغيرة وشاربان مقوّصان يدلان على أنه من طبقة راقية: «هل هذا اللورد اورلينز؟»

التفت جوليوس إلى الاتجاه الذي كانت تنظر إليه وقال: «نعم. إنه هو.»

«لقد سمعت بأنه هنا وبأنه سيذهب لحضور مسرحية الكولونيل الجديدة.»

فسألها جوليوس: «كيف عرفت بذلك؟»

أجابت جيسيلدا: «لقد وصل الكولونيل بينما كنا نتناول طعام الفطور ليدعو الماركيز لحضور المسرحية مع هنري سومركوت.»

وابتسمت قبل أن تتابع: «من المؤكد بأنهما سيلهوان كثيراً.»

فقال جوليوس أخيراً بشيء من الحدة: «لن تذهبي معهما لأنك ستتناولين طعام العشاء معي اليس كذلك؟»

«نعم بالطبع، فأنا لم أنس ذلك. كما أن الكولونيل لم يشركني بهذه الدعوة، على أية حال ليس لي مكان في الفرقة.»

«لو دعاك، لكنت قد طلبت منك أن تحافظي على وعدك لي.»

«وأنا عند وعدي لك.»

لمست الرضى التام على وجه جوليوس، وفكرت ولم تكن مخطئة في تفكيرها هذا، انه حتى لو كان سيطلب يدها للزواج منه من أجل ثروتها، فهو يشعر تجاهها بشعور قليل من المودة.

كانت على وشك أن تعيد له كوب الماء المعدنية الذي كانت تجده كل مرة تشربه أسوأ من قبل، حين ومن دون توقع، رأت امرأة تقف إلى جانبه.

ثم قالت: «أريد أن أكلمك يا سيد لبند.»

تكلمت السيدة على نحو متقطع، لكنه كان في نبرة صوتها شيئاً خفياً يجبرك أن تصغي إليها، وعندما التفت جوليوس إلى ناحيتها، أصدر شهقة صغيرة لم يستطع إخفاءها.

تابعت السيدة تقول: «أريد أن أقول لك بأنني سأغادر شلتنهام بعد ظهر هذا اليوم.»

عندها فقط، أدركت جيسيلدا من تكون هذه السيدة لا يمكن للمرء أن يتجاهل وجودها، إذاً فهي حتماً الآنسة اميلي كلترباك.

إنها ومن دون شك امرأة قبيحة، لكن وبالرغم من قباحتها، فكرت جيسيلدا بأن هناك شيء فيها يثير الشفقة.

لقد كانت ترتدي أفخر الثياب مع أن ما ترتديه لم يدل على حسن في الذوق، ولقد كان على قبعتها الصغيرة ريش النسر، كما أحاطت عنقها رسغيها بحلى كثيرة كان بالامكان تخفيفها كي تظهر قيمتها أكثر.

فقال جوليوس فجأة: «إذا كنت عازمة على السفر بعد ظهر هذا اليوم، فلا يسعني سوى أن أتمنى لك رحلة سريعة وموفقة.»

نطق بهذه الكلمات بعد أن ارتاح من بغتته عندما وقع نظره على الآنسة كلترباك حيث كانت قد عقدت الدهشة لسانه.

«هناك شيء أريد أن أقوله لك.»

نظر جوليوس بعدم ارتياح إلى جيسيلدا دون أن يتمكن من القيام بأي شيء قد يمنع متابعة كلام الآنسة كلترباك.

وتابعت تقول: «عندما جئت إلى هنا، جددت من آمالي بطريقة عرفتها الآن فقط بأنها لم تكن سوى جزء من مخيلتي. وأريد أن أشكرك لأنك جعلتني أشعر ولو لوقت قصير بأنني امرأة كبقية النساء.»

ارتبك جوليوس قائلاً: «تشكرينني؟»

لم يكن من أدنى شك بأنه كان الآن يشعر بالاحراج تابعت اميلي كلترباك تقول: «نعم لأشكرك. فأنا لم أنل السعادة الكافية في حياتي، لكنني كنت خلال الشهر الماضي امرأة سعيدة. أعرف أنه من الغباء أن أتوقع المزيد. لكنني على الأقل سأحتفظ ببعض الذكريات الحلوة معك، كما لن أنسى الكلام الجميل الذي اسمعته لي.»

كانت أقرب إلى البكاء حين نطقت بكلماتها الاخيرة، ثم مالت برأسها وابتعدت عنهما.

حدق جوليوس للحظات بالاتجاه الذي ابتعدت منه بذهول شديد، ثم التفت نحو جيسيلدا ليقول بصوت عالٍ: «حسناً، حسناً! لا يمكنني أن اتصور أن يكون أي كان عديم الاحساس...»

قاطعته جيسيلدا قائلة: «اذهب وراءها، وقل لها شيئاً لطيفاً، امنحها شيئاً لتتذكره. كن طيباً وطيباً جداً. لن هذا لن يؤذيك... لكنه قد يعني كل شيء لتلك المرأة المسكينة.»

اعتقدت جيسيلدا بأنه سيتحداها وسيرفض تلبية طلبها، لكنه عندما نظر إلى عينيها ولمس مدى جديتها، تحول عنها ليلحق باميلي كلترباك.

رأتهما جيسيلدا يتحدثان تحت أغصان الاشجار، ولأنها شعرت بأن ما تراه شيء خاص بهما، اعادت كوبها بنفسها.

لاحظت وهي تضعه فوق الطاولة بيدها ترتجف، وبأن عاطفتها القلبية تحولت إلى اميلي كلترباك، وبأنها باتت تكره جوليوس كرهاً مميتاً.

إنها لا تكرهه فقط، بل تحتقره، كيف يمكن لرجل أي رجل أن يتصرف كما تصرف هو مع تلك الفتاة المسكينة التي لم تكن تحتمل الصورة التي ولدت عليها، مع أنها تملك الشعور والاحساس كأية امرأة أخرى؟

فهي من المؤكد جاءت إلى شلتنهام آملة من بعد ما أظهر لها كل تلك المودة، بأن يتقدم طالباً الزواج منها.

فجيسيلدا متأكدة دون أن يخبرها أحد بذلك، بأن اميلي كلترباك لم تلتق في حياتها كلها برجل يظهر لها الاهتمام كما أظهره لها جوليوس، الذي ومن دون شك، ذلك إذا لم نقارنه بالماركيز أو بهنري سومركوت أو حتى بالكولونيل، شاب يمكنه أن يستحوذ اعجاب اي فتاة.

ثم فجأة، وكما تسدل الستائر فوق النافذة، تجاهلها وحول اهتمامه، كما كانت نية الماركيز، إلى وريثة ثرية رائعة الجمال.

فسألت جيسيلدا نفسها: كيف يمكن لأحد أن يكون حقيراً إلى هذه الدرجة؟

لكنها تذكرت أن دورها في هذه المسرحية لا يقلّ حقارة. صحيح أن جوليوس كان يظهر المودة الكاذبة لاميلي كلترباك، لكنها ومن ناحيتها كانت تظهر له الكذب والبهتان، ذلك كي تخدعه بناء على رغبة الماركيز ليمنع زواجه من تلك المرأة البائسة والتعيسة.

لكن الشيء الذي لم تتوصل إليه جيسيلدا في تفكيرها،

هو أن المعاناة التي قد تتحملها ايملي كلترباك متى تزوجت من جوليوس قد تفوق ما هي عليه الآن.

إنما الذي كانت تدركه وتعيه، هو أن الحب ليس من الضروري أن يعني السعادة دائماً.

الألم والتعاسة، والشوق إلى إحراز وتحقيق الآمال المستحيلة التي تشعر بها الآن. لذا فقد تعاطفت ضميرياً مع ايملي كلترباك لأنها مثلها تشعر بنفس الشعور المماثل.

لقد أحبتا حباً يصعب عليها الوصول إليه، وليس أمامهما سوى المستقبل القاتم الذي لا يحمل معه أي بصيص من أمل أو نور.

استفاقت جيسيلدا من أفكارها المتضاربة عندما سمعت صوت جوليوس وقد أصبح إلى جانبها من جديد.

«لقد فعلت ما طلبتيه مني.»

تكلم بطريقة متجهمة وقاسية، جعلت جيسيلدا تشعر بعدم الارتياح.

لكنها قالت له: «شكراً لك.»

ثم مشيا يغادران المكان، فسألها جوليوس: «هل ترافقينني في نزهة بعد ظهر هذا اليوم؟»

أجابت جيسيلدا: «أخشى أن يكون ذلك غير ممكناً، لأنني سأبدل بعض الكتب للماركيز من المكتبة، ذلك بالاضافة إلى بعض المشاغل الاخرى.»

«أعتقد أنه قد يريد الاستراحة إذا كان يبغي حقاً الذهاب إلى المسرح هذه الليلة.»

«لقد يرغب أن أقرأ له.»

تكلمت جيسيلدا دون تفكير جاعلة جوليوس يقول

بدهشة: «لا أرى سبباً يدعوك للقيام بكل هذه الامور لابن عمي، هذا بالاضافة إلى أن من حوله العديد من الخدم الذين يسهرون على راحته.»

لتخلص نفسها من الخطأ الفادح الذي أوقعت نفسها فيه، أسرعت جيسيلدا تقول: «أؤكد لك أنني أرغب كثيراً في تقديم المساعدة، وعلى أية حال، فالماركيز أصيب بتلك الجروح أبان الحرب، ولا أعتقد أن هناك أحد باستطاعته أن يقوم بالكثير للرجال الذين حاربوا لأجلنا ضد نابليون بونابرت.»

ظهر الانزعاج والتجهم أكثر على وجه جوليوس، فادركت جيسيلدا أن سبب ذلك هو عدم مشاركته بتلك الحروب.

توسعت جيسيلدا بكلامها متابعة: «هذا بالاضافة، إلى أنني أرغب بالذهاب إلى مكتبة وليام لأجرب آلة الوزن وكلي أمل بأن أكون قد زدت وزناً منذ اقامتي في شلتنهام. على أية حال، سأعرف ذلك بعد ظهر هذا اليوم.»

«لكنك ستتناولين معي طعام العشاء هذه الليلة.»

«طبعاً. فأنا متشوقة لذلك.»

أجبرت جيسيلدا نفسها على نطق هذه الكلمات لأنها لا تريد أن تخذل الماركيز لو أظهرت لجوليوس نواياها الحقيقية تجاهه.

ثم قال وكأنه شعر أن عليه توضيح امراً ما: «كنت مرتبطاً بعمل مع والد الآنسة كلترباك، وهكذا التقيت بها، وبما أنها من الصنف الذي يسيء الفهم، وجدت في احترامي وادبي اموراً مختلفة جداً.»

شعرت جيسيلدا من كلامه الحقير بالقشعريرة الباردة تسري في عروقها، كما شعرت بأنها تكرهه الآن أكثر من أية مرة سابقة.

كيف يجرؤ على أن يشير إلى الآنسة كلتربياك بأنها من هذا الصنف، بينما لولا تدخل الماركيز لكانا في هذا الوقت يعلنان خطوبتهما؟

وتمكنت أن تقول له بعد لحظات: «أعتقد أن الآنسة الآن في غاية التعاسة».

أجاب جوليوس مستهتراً: «إنني متأكد بأنها ستتعافى من ذلك، كما أؤكد لك، بأنني لم أخطىء معها».

وصلا أخيراً إلى المكان التي تقف فيه عربة جوليوس، فسألها: «هل تريدين أن آخذك إلى أي مكان قبل أن تعودي إلى المنتجع؟»

«لا، شكراً لك».

قالت ذلك وهي تشعر أنه لم يعد في وسعها أن تحتمل وجوده قريباً منها أكثر من ذلك.

توقفت العربة بعد ذلك عند المنتجع، فسألها من جديد: «هل تريدينني أن آتي لاصطحابك هذه الليلة؟»

أجابت جيسيلدا: «يمكنني أن أتدبر إحدى عربات الكولونيل لتنقلني إلى بلوه، فالمسافة قصيرة جداً».

«إذاً سأكون في شوق كبير حتى يحين موعد وصولك».

دخلت المنزل بعد ذلك وتوجهت إلى غرفة الجلوس وكما توقعت، وجدت الماركيز يجلس على الشرفة يقرأ في جريدة.

حوّل نظره إليها حين أصبحت قريبة منه، وبعد أن نظر إليها مطولاً قال لها: «ما الذي يزعجك؟»

فسألته جيسيلدا: «هل ذلك واضح على وجهي؟»

أجاب الماركيز: «واضح بالنسبة إلي، اجلسي وأخبريني بما حدث».

«إنه... السيد ليند؟»

«أعتقد أنه طلب منك الزواج».

«لا، ليس الأمر كذلك».

«إذاً ماذا هناك؟»

شرحت جيسيلدا الأمر قائلة: «لقد ذهبنا إلى الينابيع، وبينما نحن هناك، ظهرت الآنسة كلتربياك لتقول له وداعاً».

«وهل هذا أزعجك؟»

«لقد كانت تعيسة للغاية... لكن في الوقت نفسه شجاعة أيضاً».

تنهدت جيسيلدا قبل أن تتابع: «لقد شكرت السيد ليند لأنه جعلها تشعر... ولو لوقت قصير... بأنها امرأة».

ثم حولت نظرها إلى الحديقة في محاولة لمنع تساقط دموعها.

فقال الماركيز: «لقد حذرتك قبل الآن بأن جوليوس شخص جدير بالازدراء».

قالت جيسيلدا: «لما كان الأمر بذات أهمية، لو أنها لم تكن بهذه القباحة».

لم يجب الماركيز، فتابعت بعد لحظات: «إنه من القساوة والخطأ أن نحكم على الناس من المظهر الخارجي، بينما يملكون في داخلهم نفس المشاعر كغيرهم».

قال الماركيز بهدوء: «من المستحيل للرجل والمرأة أن يتعادلا على هذه الأرض».

أجابت جيسيلدا: «من المؤسف أنه ليس من عزاء لها».

شد الماركيز حبل الجرس الذي إلى جانبه قائلاً: «سأطلب لك كوباً من عصير الليمون كي يهدىء من روعك والذي سيكون أنفع لك من تلك المياه المعدنية التي تشربينها. هذا الأمر أزعجك يا جيسيلدا، أفهم شعورك ذلك وأحترمه. لكنني لا أتمنى أن تضيف تصرفات جوليوس مشكلة فوق مشاكلك».

فقالت جيسيلدا: «لا أستطيع التغاضي عن ذلك».

ظهر الخادم في تلك الأثناء، فطلب الماركيز منه ما يريد. ثم قال بعد أن خرج الخادم: «انسي الآنسة كلتربك وانسي جوليوس الآن! فهو لا يستحق منك كل هذا التفكير».

فقالت جيسيلدا بصوت ضعيف: «عندما قلت لك هذا الصباح أن لا تكون قاسياً معه بهذا الشكل، اعتقدت أن ذلك قد يؤذيك... لكنني الآن... أكرهه! أكرهه بطريقة أعرف بأنها... خطأ كبير!».

أجاب الماركيز باختصار: «انسيه! انزعي قبعتك يا جيسيلدا واستمتعي بأشعة الشمس».

أطاعته وظهر شعرها المسرح بعناية، فقال الماركيز: «يبدو جميلاً جداً، ومختلفاً عن ما رأيته في أول مقابلة معك».

نظرت إليه بدهشة فتابع يقول: «لقد كان شعرك ضعيفاً كما نحول جسدك، لكنه الآن يشع بالحياة».

«لاحظت ذلك... لكن يدهشني أن تلاحظ أنت بالذات».

«لاحظ كل شيء فيك يا جيسيلدا».

دخل الخادم وهو يحمل صينية عليها ابريق من عصير الليمون ووضعها على الطاولة.

قالت جيسيلدا لنفسها بأن الماركيز يتكلم بصورة غير شخصية، لأنه هو الذي اختارها لتمثيل هذا الدور كما يختار الكولونيل الممثلين للعمل في مسرحه.

هذا أمر يسليه ويبعد الهم عن قلبه، لأنه مريض ولا عمل له ليقوم به، فاختار السيدة بلاروفيلد القادمة من يوركشاير وألبسها أفخر الثياب وعلمها الكلمات التي يجب أن تنطق بها، ثم أخذ يتفرج عليها مع باقي المشتركين في هذه المسرحية.

عادت تقول لنفسها: هذا كل ما أعنيه له.

لكن وبالرغم من ذلك، كانت تشعر بالارتياح لوجودها معه وبأنه مستعد لأن يصغي لأي شيء تريد قوله.

ناولها كوب العصير وعادت الأفكار تتضارب في رأسها: لو جاء اليوم الذي سأبعد فيه عنه، سيظل طيفه ساكناً في أفكاري».

قطع الماركيز تفكيرها قائلاً: «إنه عصير ممتاز، اشربي المزيد يا جيسيلدا، فهذا سينفعك كثيراً».

أطاعته جيسيلدا كعادتها وقالت لنفسها: سأحفظ هذه الذكريات في قلبي لعلها تضيء المستقبل القاتم.

• • •

ارتدت جيسيلدا ملابسها لسهرة الليلة في وقت مبكر لتتمكن من رؤية الماركيز قبل ذهابه إلى المسرح. لم تكن

الساعة قد أصبحت السابعة عندما هبطت السلالم إلى صالون المنتجع ووجدت الماركيز جالساً هناك يحتسي فنجاناً من الشاي.

كان الماركيز وهنري سيتناولان العشاء في هذا المنتجع قبل أن تنقلهما العربة مع جيسيلدا كل في اتجاهه.

دخلت جيسيلدا غرفة الجلوس وقد ارتدت ثوباً جديداً أملت أن يوافق عليه الماركيز.

إنما الذي لفت انتباهها، أناقته الكاملة التي تؤثر تأثيراً كاملاً في النفوس.

وعندما أصبحت قريبة منه، قال لها: «ثوب جميل جداً ومما لا شك فيه، هو أن السيدة فيفيان رائعة في ذوقها كما أن هذا الثوب يليق بك أكثر من أي ثوب ارتديته لغاية الآن».

أطل النور من عيني جيسيلدا وقالت: «يسعدني أنه حظي بموافقتك».

فقال شيئاً فكرت به جيسيلدا أيضاً: «إنما وللأسف لا يستحق جوليوس، كما لا شيء يستحقه».

قالت دون تفكير منها: «كم تمنيت لو أنني لست مضطرة للخروج معه».

«قد تكون هذه المرة هي المرة الأخيرة قبل أن تبتعدي عنه وعن صحبته المملة».

«آمل ذلك».

تابع الماركيز يقول: «لقد فكرت أن نوصلك هنري وأنا إلى بلوم ونحن في طريقنا إلى المسرح، لأنني لا أرغب أن تنتقلي بمفردك حتى لو كانت المسافة قصيرة».

فقالت جيسيلدا: «شكراً لك... هذا لطف منك».

إن المكوث مع الماركيز حتى ولو لدقائق قليلة، كان يعني الكثير لها. لقد فكرت طوال بعد ظهر هذا اليوم، أن كل ساعة تقضيها معه لهي ثمينة جداً.

لقد أصبح الوقت الذي سيفصلها عن الماركيز قريباً، وربما أكثر مما تتصور، حيث يغادر شلتنهام عائداً إلى دياره وعندها لن تعود إلى رؤيته كسابق عهدها.

سألها قاطعاً عليها أفكارها: «هل ترتدين كوباً من العصير؟»

أجابت: «لا، شكراً لك، فمن المؤكد أن جوليوس سيطلبه لي لاحقاً مع العشاء».

فقال الماركيز: «أشك في حسن اختياره للطعام، فالمغفلين أمثاله يعتقدون فقط أن الطعام الغالي الثمن هو الأفضل. إنما أنت وأنا نعرف أفضل من ذلك».

فقالت: «لقد علمتني الكثير منذ أن أصبحت في خدمتك، ولطالما كنت أحبذ الطعام الجيد، لكنني لم أكن أفهم بالملحمات الرئيسية، أو من أين أتى ذلك الطعم من المأكولات الطيبة التي طبخت بعناية ومهارة».

فقال الماركيز: «ما زال هناك الكثير لأعلمك إياه».

نظرت إليه تريد أن تقول له بأنها حقاً تريد أن تتعلم الكثير، لكن الكلمات ماتت بين شفتيها.

كان في ملامح وجه الماركيز تعبيراً لم تجرؤ على ترجمته لنفسها، إنما جعل قلبها يخفق بشدة وعنف، ولم يخلصها من هذا الموقف سوى مجيء هنري سومركوت.

وقبل ذهابهم جلست تحدثهما بينما كانا يتناولان العشاء، كما جعلها هنري سومركوت تضحك كثيراً القصصه

حول كيف جعله الماركيز يركض طوال النهار من أجل إرسال رسالة شفهية.

أوصلاها إلى بلوه قبل الثامنة بقليل. كان لبلوه فسحة خارجية واسعة، وقد قال الماركيز لجيسيلدا ليزيدها معلومات عنها: «لبلوه اسطبلات تتسع لمئة جواد، وعدد لا يستهان به لمواقف العربات.»

كما عرفت جيسيلدا من الماركيز، بأن لبلوه مطعم فسيح تتم فيه مآدب العشاء، كما يعقد فيه الكولونيل كافة اجتماعاته.

لم تكن السقوف عالية، لكن كان هناك شيء يبعث الطمأنينة في النفوس في ممراته الضيقة.

دهشت نوعاً ما عندما لم تجد جوليوس بانتظارها عندما وصلت، لكن الخادم أرشدها حالاً إلى الطابق العلوي.

ثم قال الخادم لجوليوس عندما وصل: «ها السيدة التي تنتظرها يا سيدي.»

لاحظت جيسيلدا عندما اقترب جوليوس ليحييها، بأنه لم يكن بمفرده.

فقال جوليوس: «هناك مفاجأة لك. إننا لن نكون بمفردنا هذه الليلة وذلك لسبب بسيط. فالسيد سبتموس بلاكت أصر على لعب دور المرافق والمحافظ.»

كانت ملامح وجه جوليوس غير مرضية، كما أن صوته كان فظاً والكلمات خرجت من فمه من غير وضوح.

حولت نظرها إلى السيد بلاكت ولاحظت أنه لا يرتدي ثياباً للسهرة، بل ثياباً بسيطة كأنها ثياب سفر.

تابع جوليوس يقول بصوت مزعج: «إن السيد بلاكت، في

حال لم يصدف لك أن شاهدت مثل صنفه، يُعرف يا عزيزتي جيسيلدا بالذي يلاحق ويلح في طلب الديون. لقد جاء من لندن بالرغم من طول المسافة، ليقول لي إن أمامي خيارين: الأول إما أن أدفع ديونه المستحقة، أو أن أرافقه في الحال لأقابل الملك.»

لم تستطع جيسيلدا في بداية الأمر أن تفكر بأية إجابة فالسيد بلاكت القصير والبدين والذي قد يكون قد بلغ الأربعين من عمره، ينظر إليها في هذه اللحظات وهو ينحني إليها بطريقة غير لبقة.

لكنها تمكنت أن تقول أخيراً: «ربما... ربما تفضل أن أعود أدراجي.»

أجاب جوليوس: «لا، بالطبع، ليس من ضرورة. لذلك فقد قلت للسيد بلاكت إنه سيمكنني دفع الديون بسهولة ودون أية مشاكل قبل نهاية هذه السهرة، لكنه لا يصدقني، لذا فأنا مضطر لأن أقبل حضوره بيننا ونحن نتناول طعام العشاء.»

تراجعت جيسيلدا خطوة إلى الوراء ثم قالت: «أعتقد يا سيد ليند... إن من الأفضل لي أن... أعود إلى المنتجع... فهل تتكرم وتطلب لي أية عربة؟ لقد أحضرني الماركيز والسيد هنري سومركوت إلى هنا وذهبا بعد ذلك إلى المسرح.»

صرخ جوليوس قائلاً: «يجب ألا تتركيني! لقد خططت لمثل هذا العشاء معك وليس مئة أو لنقل ألف شخص أمثال السيد بلاكت سيمنعانا من التمتع بذلك.»

ثم تابع بعد أن ازدرد ريقه: «بالإضافة، فالمفاجأة التي

أحضرها للسيد بلاكت، ستكون لك أيضاً. في وقت لاحق وبعد أن نصبح بمفردنا، يمكنني أن أكلمك بالكلام الذي كنت عازماً على أن أكلمك به هذه الليلة».

نقلت جيسيلدا نظرها بين الرجلين بحيرة وارتباك مفكرة لو فقط كان الماركيز موجوداً الآن، لكان عرف كيف يتصرف معه، لكنها لن تراه قبل ساعتين على الأقل حين يعود إلى المنتجع.

شعرت باليأس والاحباط، وأدركت أنها لو أصرت على موقفها في طلب العربة من جوليوس، سوف تثير ثائرته وقد يحدث بلبلة.

ثم وبمجهود منها، قالت للسيد بلاكت:

«هل كانت الطرقات سيئة من لندن إلى هنا؟»

«لا يا سيدتي، إنها أفضل حالاً في هذا الوقت من السنة كما أنها أفضل من أي وقت سابق».

«لقد عرفت بأنها يصعب اجتيازها».

«هذا صحيح، كما أنني مررت سابقاً برحلات غير مرضية».

كانا يتحدثان معاً بطريقة حضارية، لكن جوليوس الذي لم تره جيسيلدا على مثل هذه الحالة السيئة قبلاً، تدخل قائلاً: «إن كل رحلاتك يا سيد بلاكت غير مرضية لشخص واحد. هل هذه احدى خصائصك؟»

لم يجب السيد بلاكت، فقرع جوليوس الجرس بعنف ثم قال بفظاظة: «لنتناول طعام العشاء، فالسيد بلاكت يعتقد أن هذا العشاء سيكون آخر وجبة قد أتناولها، لكنني سأسخر منه، لأنه سيعود غداً إلى لندن مخيب الآمال».

قال السيد بلاكت عند ذلك: «أؤكد لك يا سيد ليند بأنني أفضل أن استعيد مالي بدلاً من رفقتك هذه».

أجاب جوليوس: «هذا تماماً ما ستحصل عليه، مالك!»

حاولت جيسيلدا أن تفكر ما يمكن أن يعني كل هذا. فهل كان يتصور أنه متى طلب الزواج منها، بأنها ستسرع لدفع ديونه؟

لا يمكن لأحد أن يقبل مثل هذا الوضع، حتى ولو كانت تحبه كما تحبه تلك المرأة البائسة اميلي كلتربك.

وخلال تناول العشاء لم تتوقف جيسيلدا عن التفكير والتساؤل دون أن تتوصل إلى اجابة مرضية. كما أنها لم تتناول شيئاً يذكر من الطعام بينما تناوله السيد بلاكت بنهم وجشع ولا تعنيه فظاظة سلوك جوليوس. لقد كانت هذه الرفقة غير مريحة وكم تاقت نفس جيسيلدا بالعودة إلى المنتجع.

أخيراً، وعندما لم يستطع السيد بلاكت تناول المزيد من الطعام، طلب الحلوى والقهوة، فشعرت جيسيلدا بالملل حين عرفت أن الساعة لم تتجاوز التاسعة إلا قليلاً، لذا قالت بينها وبين نفسها: «عندما أنتهي من القهوة، سأرحل من هنا».

نظرت إلى الحالة السيئة التي وصل إليها جوليوس وأدركت أنه لن يستطيع منعها.

ثم قال جوليوس بطريقة عصبية كمن فقد السيطرة على أعصابه: «لهذا السبب تلاحقني يا بلاكت، لكن ستصاب بخيبة أمل متمرة وسأسخر منك بدلاً من أن تسخر مني وترجني في السجن».

لم يتوقف عن الكلام اللاذع وتابع يقول: «بعد ساعات

قليلة سوف تحبو حبواً إلي طالباً مني أن لا أتوقف عن التعامل معك ومع أمثالك».

ثم ضرب بقبضة يده فوق الطاولة، فاهتزت الفناجين والأقداح ليتابع قائلاً: «لكنني لا، لن أستمر في تعاملي معكم وستعلمون كم أخطأتم بملاحقتكم لي».

سألته جيسيلدا: «كيف يمكنك أن تعيد المال للسيد بلاكت؟».

شعرت بعد أن طرحت هذا السؤال بأنها ستتلقى إجابة لن ترضيها، لكنها عزمت بأن تترك المكان قبل أن تسمع الجواب وتطلب من أحد الخدم أن يطلب لها أية عربة.

لكن جوليوس أجاب: «إنه سؤال وجيه يا سيدة بارونفيلد، سؤال وجيه جداً! إنك امرأة ذكية ولطالما رأيتك كذلك، لكنني لن أجيب عليه الآن... وأعتقد أن أمامنا بضعة دقائق قبل أن أجيب».

«بضعة دقائق؟».

أجاب جوليوس وهو ما زال على الحالة العصبية: «نعم بضعة دقائق، بعدها لن تعودي إلى رؤية جوليوس ليند الفقير المعدم والملاحق بدفع الديون على فكرة من برأيك سترين؟».

أجابت جيسيلدا: «لا فكرة لدي، من سارى؟».

«الماركيز الخامس لعائلة ليندهرست وهذا سيكون أنا! الماركيز الخامس، هل سمعت ذلك يا بلاكت؟ الآن عرفت لماذا ستعود بمفردك إلى لندن».

دهشت جيسيلدا وسألت: «ماذا تعني؟ وكيف يمكن حدوث ذلك؟».

أشار جوليوس بإصبع يده إلى الساعة المعلقة ثم قال: «بانغ.. بانغ! فقط طلقة بانغ واحدة، ويسقط الماركيز الرابع على الأرض ميتاً».

نهضت جيسيلدا من مكانها بسرعة، لدرجة أنها أوقعت الكرسي على الأرض وخرجت بأقصى ما تملك من سرعة خارج هذا المكان، وعندما أصبحت في الشارع أخذت تعدو باتجاه المسرح.

www.liilas.com
وحده فاضيه

الفصل السادس

العربة التي اقلّت جيسيلدا إلى بلوه، هي نفسها التي نقلت الماركيز وهنري سومركوت إلى المسرح الملكي الذي له تاريخ عريق في الأعمال المسرحية المبدعة.

في بادىء الأمر، كان المسرح صغيراً ظهرت فيه الممثلة الشابة ساره سيدونز لأول مرة في مسرحية فينيا المحظورة، ولقد أعجبت الجمهور أشد الاعجاب لدرجة أن تمثيلها المتقن أبلغ إلى دافيد غاريك. وبعد وقت قليل بدأت شهرتها تلمع أكثر فأكثر عندما مثلت في مسارح لندن.

كما أن العديد من الممثلات والممثلين عملوا في البداية في المسرح الصغير أمثال، شارلز كمبل، دوروثي جوردان، هاربيت ميلون.

فالمسرح الملكي، بالرغم من صغر مساحته، كان مصمماً بترتيب، كما أن هندسته المعمارية والألوان التي اعتمدت فيه، تتألق بأبهة وإشراق.

ثمن التذكرة في الصالة، شلن واحد وستة بنسات، بينما سعر التذكرة في الغرف الخاصة خمسة شلنات.

ان الماركيز لم يدخل المسرح من الباب الرئيسي، وانما من مدخل خاص يستعمله الكولونيل بيركلي، والذي يؤدي مباشرة إلى الغرفة الخاصة.

جلس الماركيز مع هنري سومركوت في الغرفة الخاصة

ونظر إلى الصالة التي امتلأت تقريباً. فلاحظ أن أكثر الحضور يعرفهم، كما لاحظ أن اللورد اورلينز يجلس في الغرفة الملكية مع سيدتين، احداهما أومأت للماركيز بحماس شديد، حتى أن الذين جلسوا في الغرف الأخرى أخذوا يلوحون له بمناديلهم، ذلك لأنه يظهر في المجتمع لأول مرة بعد اصابته بتلك الجروح البليغة في ساقه.

أومأ لهم جميعاً برأسه احتراماً، بعدها تناول برنامج المسرحية من أمامه ليعرف من سيمثل مع الكولونيل الذي كان قد قال له ان المشاركة في دور البطولة ستكون ماريا فوت.

فقال له هنري سومركوت وكأنه عرف بما يفكر: «إنها في الواقع، لا تعتبر ممثلة مميزة، لكنها بالمقابل ذات قدرة في اضحاكنا قد يمتعنا كثيراً خلال المسرحية.»

وحالما فتحت الستائر وظهرت ماريا فوت، فهم الماركيز لماذا يعجب الكولونيل بها.

استمتع الماركيز بالجزء الأول من المسرحية، لذا فعندما اسدلت الستائر، ملأ التصفيق الشديد من الصالة، فقال الماركيز معلقاً: «من الواضح جداً نجاح الكولونيل في هذا المضمار.»

أجاب هنري سومركوت: «لو سألتني رأيي، لقلت لك ان الجمهور يستمتعون فقد بالقصة لأنها حقيقية وحصلت فعلاً خارج خشبة المسرح. لقد عرفت ان واحدة من صديقات الكولونيل، تحتج بشدة ضد صديقته الجديدة ماريا.»

ضحكا عندما وصلا بحديثهما إلى هذا الحد، ثم وبصورة مفاجئة، دخل عليهما صديقتين من صديقات

الماركيز وكانت لحداهما في غاية الأناقة. فقالت بعفوية: «سنعود إلى رؤيتك في المجتمعات طالما أن صحتك قد تحسنت».

أعلن في تلك الأثناء عن بداية الجزء الثاني للمسرحية وبان على الحضور أن يعودوا إلى مقاعدهم. فقال الماركيز لصديقه: «أعتقد أنني في القريب العاجل سأغادر شلتتهام».

كان الجزء الثاني للمسرحية معبراً جداً. وبينما كانا يستمتعان بها، فتح باب الغرفة ليدخل عليهما الكولونيل الذي لم يكن له أي جزء تمثيلي في الفقرة الثانية للمسرحية ثم جلس على المقعد الثالث.

المشهد في هذه اللحظات في المسرحية، كان عن والد يريد أن يقتل رجلاً جلب العار عليه وعلى ابنته وقد سحب مسدساً من خاصرته. لكن المسدس كان مصوباً إلى الغرفة التي يجلس فيها الأصدقاء الثلاثة وتحديداً على الماركيز نفسه.

فصرخ الممثل: «مت أيها النذل».

كانت يده تضغط على المسدس بشدة كأنه يحاول التركيز على هدفه أكثر، لكن باب الغرفة فتح فجأة لتدخل منه سيدة أسرعت تقف أمام الماركيز مباشرة. عملها هذا أدهش وأربك الممثل، مما جعل يده تهتز. فخرجت الرصاصة من المسدس إلى غير هدفها.

أصابت الرصاصة عموداً مطلياً بالذهب في الغرفة التي يجلس فيها الماركيز وأحدثت صوت انفجار صغير.

خيّم هدوء مروع بين الحضور، ثم نهض الكولونيل من

مكانه هاتفاً: «لا أصدق! هذا المسدس كان محشواً برصاص حقيقي».

شحب وجه الممثل وأجاب بعد لحظات بتردد: «لم أكن أدري، أقسم لك بأنني لم أكن أدري... لقد قيل لي إنه مجرد شرط بين سيدين».

هدر الكولونيل قائلاً: «كنت على وشك قتله».

وقف الحضور في تلك الأثناء بعد أن استفاقوا من دهشتهم يصرخون مشيرين إلى مكان الرصاصة استنكاراً.

كانت جيسيلدا تلهث لهاثاً شديداً لأنها كانت تعدو بأقصى سرعة طول المسافة بين بلوه والمسرح الملكي.

قال الماركيز عندها بالحاح لهنري سومركوت: «جد جوليوس وأخرجه من بريطانيا في الحال! سأمنحه ألف جنيه طالما لا تطأه قدماً في هذه البلاد. وإذا عاد، سيتهم بمحاولة القتل».

بسرعة الرجل الذي اعتاد أن يتلقى الأوامر وينفذها، خرج هنري سومركوت من الغرفة دون أن ينطق بكلمة.

كان الكولونيل في تلك اللحظات يصرخ متهماً الممثل، والممثل يردّ على صراخه بالمثل بين صخب الحضور وضجيجهم استنكاراً للخطر الذي كان يحيط بالماركيز.

أمسك الماركيز بيد جيسيلدا وخرج بها من الغرفة دون أن يلقي نظرة واحدة إلى الصالة، ومشت معه تحاول بعدها أن تحافظ على توازنها.

كانت عربة الماركيز تقف في الشارع، فأسرع الخادم يفتح بابها وساعد جيسيلدا بالصعود إليها، ثم لحق بها الماركيز.

قال لها بعد أن انطلقت العربة: «لقد أنقذت حياتي يا جيسيلدا! كيف عرفت بأن جوليوس يريد قتلي؟»

مرت لحظات قليلة قبل أن تتمكن جيسيلدا من الاجابة لتقول: «لقد... قال إنه سيصبح الماركيز الخامس للينديرست في الساعة التاسعة والنصف».

تنهدت بصعوبة قبل أن تتابع: «فكرت.... انني... سأصل بعد فوات الأوان... وبأنك قد تموت».

قال الماركيز: «اشكرك من صميم قلبي، لأنك انقذتني».

وصلت العربة بهما إلى المنتجع، فأسرع الخادم وفتح الباب ليخرجا منها، كما جاء بكرسي ليجلس عليه الماركيز لتمكن من نقله إلى غرفة الجلوس في جناحه.

لقد كانت هذه الفكرة، فكرة الكولونيل كي لا يتعب الماركيز نفسه بصعود السلالم خاصة أنه لم يتعاف كلياً بعد.

وعندما اصبحا في الغرفة والخدم يحيطون بهما ليوفروا لهما الراحة، سكب الماركيز كوبين من الشراب المنعش الموجود على الطاولة.

سأله أحد الخدم: «هل تريد العشاء يا سيدي؟»

أجاب الماركيز: «ليس الآن، سأبلغك عندما احتاج لأي شيء».

«حسناً يا سيدي».

ثم التفت الماركيز نحو جيسيلدا قائلاً: «اعتقد أننا نحتاج إلى هذا الشراب المنعش».

كانت جيسيلدا تقف في الغرفة بوجهها الشاحب والخائف.

فقال لها: «إن الامور على خير ما يرام يا عزيزتي ولقد انتهى كل شيء. لا خطر بعد الآن، لأننا لن نعود إلى رؤية جوليوس من جديد».

همست جيسيلدا: «كنت... خائفة جداً، ويائسة».

كان في صوتها غصة يمكن ملاحظتها، فسألها الماركيز بلطف: «لماذا أردت انقاذ حياتي؟»

لم يكن من حاجة لجيسيلدا أن تجيب، لأنه كان بإمكانه أن يرى الجواب في عينيها، فنظر فيهما مطولاً ثم قال بهدوء: «أحبك يا غاليتي».

تجمدت جيسيلدا مكانها لا تصدق ما تسمعه من الماركيز الذي أخذ يفكر وهو ينظر إليها، بانه لم ولن يصادف في حياته امرأة نقية وبريئة مثلها.

ثم تابع يقول برقة: «أحبك يا جميلتي! أحبك لدرجة أنني لا أستطيع ايجاد الكلمات المناسبة لأعبر لك أكثر من ذلك، ولربما أنت تبادلينني ولو القليل من هذا الشعور».

أجابت جيسيلدا: «أبادلك أكثر مما تظن، انك تسكن قلبي وفكري وضميري... ولا أرى أحداً في العالم سواك».

شعرت جيسيلدا وكان العالم يعبق بالفل والياسمين وبموسيقى تعزف لها أعذب الانغام، إنها لم تكن تعلم أو تحلم بأن الماركيز سيتوجه إليها بمثل هذا الكلام ليعبر عن حبه لها.

ثم قال الماركيز بصوت عميق: «لم أكن أصدق أنني قد أجد في هذا العالم امرأة بصفاتك الحسنة وأخلاقك النبيلة... على فكرة، متى ستتزوجينني يا عزيزتي؟»

عقدت الدهشة لسان جيسيلدا وابتعدت قليلاً تفكر بكلام

الماركيز الأخير لعلها تجد اجابة مناسبة، ثم قالت محاولة جهدها المحافظة على رباطة جأشها: «هناك أمر.... أريد أن أطلعك عليه.»

ابتسم الماركيز قائلاً: «أسرارك؟ إنها ليست بذات أهمية يا غاليتي. أما الذي يهم، هو أنك تبادلينني نفس الشعور وأكثر، لدرجة أنك عرضت حياتك للخطر من أجلي. لذا أريدك أنت وكما أنت لتكوني شريكة حياتي.»

رأى الدموع تترقرق في عينيها وهي تقول بلطف: «هل ممكن لأي رجل أن يكون رائعاً مثلك؟»

فقال الماركيز: «تعالي واجلسي، ولا تبقي واقفة هكذا.»

أجابت جيسيلدا: «المهم أن تجلس أنت، لأنك أطلت الوقوف، ويجب أن... أكلمك... بالرغم من صعوبة ذلك.»

فسألها: «هل ما ستقولينه بهذه الأهمية؟»

لكنه أدرك من تعابير وجهها بأنها كانت تعني ما قالته، فجلس ارضاء لها من ناحية، ومن ناحية أخرى لأنه بدا يشعر ببعض الألم في ساقه.

وبدأت تتكلم: «إن كل لحظة من لحظات خدمتي لك كانت بمثابة بهجة لا يمكن وصفها. ولطالما حلمت بك أثناء نومي وبأنك ستكون زوجي.»

فقال الماركيز: «هذا حتماً ما سيكون.»

حرّكت رأسها بطريقة يائسة، فشعر الماركيز بالخوف وقال: «ما الذي تحاولين قوله لي يا جيسيلدا؟»

أجابت: «لقد كنت... أنتظر هذه اللحظات، انتظر لأطلعك... عن نفسي... لكنني بقيت افكر مطولاً.... لأنني

أردت ذلك... بأنه ما زال هناك متسع من الوقت.... وقت لأكلمك فيه.... ولربما لأحبك... حتى وأنت لست على علم بذلك.»

فقال الماركيز: «لقد أخذني بعض الوقت أيضاً، لأدرك بأن ما كنت أشعر به تجاهك كان الحب، كما أدركت يا جيسيلدا بأنني لم أحب مرة في حياتي.»

ابتسم قبل أن يتابع: «ولا واحدة جعلتني أشعر بأنها جزء من نفسي وبأن علي حمايتها والاهتمام بها، وبأنني لا استطيع العيش من دونها كما أنت بالذات.»

مرة أخرى حرّكت جيسيلدا رأسها، فسألها وقد ملأ الخوف قلبها: «ماذا تريدين قوله لي؟»

تنهدت بعمق وقالت: «هل تفعل شيئاً... لو طلبته منك؟»

أجاب الماركيز: «سأفعل أي شيء تطلبينه مني، فأنت لي ولا احد سيأخذك مني! انك لي الآن وحتى آخر العمر!»

ابتعدت جيسيلدا لتقف وراء الكرسي الذي يجلس عليه الماركيز ثم قالت: «لا أريدك أن تنظر إلي، أريدك أن تصغي إليّ.»

قال الماركيز: «انني اصغي.»

«أريد أن تعرف أنني سأحبك حتى آخر العمر... لا لن يكون... أي رجل في حياتي سواك... وسوف أفكر بك وأدعو لك بالسعادة في كل لحظة من لحظات حياتي.»

اضطرب صوتها عند الكلمة الأخيرة للحظات قليلة قبل أن تتابع: «ان اسمي الحقيقي هو... جيسيلدا تشارلتون! كان والدي النقيب موريس تشارلتون... الآن ربما تفهم.»

شعر الماركيز بذهول تام، بعدها وفي محاولة منه ليستجمع أفكاره، دار برأسه ليلكمها، لكنه سمع باب الغرفة يقفل بهدوء، فأدرك بأنها غادرت المكان.

وجد صعوبة في تصديق ما سمعه لبضع لحظات، لكنه نهض بجهد من كرسيه ليصل إلى الجرس كي يقرعه.

لكن قبل أن يتمكن من فعل ذلك، فتح الباب ودخل منه هنري سومركوت وهو يقول: «الامر على ما يرام، لقد تم كل شيء حسب أوامرك يا تالبوت، لقد دفعت ديون جوليوس، وهو الآن في طريقه للخروج من هذه البلاد...».

توقف فجأة ونظر إلى الماركيز بقلق وتلهف شديدين قائلاً: «ماذا هناك يا تالبوت؟ ماذا حصل؟»

صرخ الماركيز: «أوقف جيسيلدا! أوقفها قبل أن تغادر المنتجع!»

أجاب هنري سومركوت: «أعتقد بأنها غادرته فعلاً، فعندما توقفت عربتي أمام المبنى، اعتقدت بأن من أراها تركض في الشارع هي جيسيلدا، لكنني كنت متأكداً بأنني كنت مخطئاً.»

هتف الماركيز: «آه، لقد رحلت، ولا أعرف حتى أين تقيم.»

«ما الذي استجد؟ لماذا رحلت بهذه الطريقة؟ هل تشاجرتما؟»

ردد الماركيز بصوت غريب: «تشاجرنا؟ إنها ابنة موريس تشارلتون!»

هتف هنري سومركوت وكأنه لا يصدق: «لكن كيف عرفت ذلك؟»

«قالت لي بنفسها، ولهذا السبب رحلت من هنا. يجب أن أجدها يا هنري.»

«بالطبع.. لطالما بحثنا عنه طوال هذه السنة دون جدوى.»

إنه ومنذ أن عادا من بروكسل إلى لندن، كان الضباط يبحثون عنه وقد وضعوا كل إمكانياتهم لايجاده، لكن الذي بدا لهم هو أنه قد تبخر في الهواء. وكان أملهم الوحيد أن يحالفهم الحظ في ايجاد أي خيط ولو رفيعاً ليهديهم إلى مكان وجوده.

وعادت بهما الذكريات إلى الوراء إلى أمور لم يريدوها أن تحدث قبل معركة واترلو.

لقد كان كل ضباط كتيبة الماركيز يحتشدون في وسط بروكسل، وكانوا يمضون الليالي عندما يكونون خارج الخدمة في المدينة. كما كانت هناك فتاة عرفها الضباط البريطانيين، تدعى ماريا لويز ريفير.

عرف أكثرية من عملوا في كتيبة الماركيز، ماريا لويز. كذلك موريس تشارلتون.

لقد كان تشارلتون جندياً متمرساً في الاربعين من عمره، لكنه رجل محبوب للغاية.

أحبه الجميع وكانت له شعبية كبيرة، ليس فقد بين أخوته الضباط، ولكن بين الجنود العاديين أيضاً.

شاهده الماركيز لمرة أو لمرتين، وكان يعتقد بأن ماريا لويز تحترمه اكثر من الجميع، لكنه لم يكن متأكداً من ذلك.

بعدها، بعد ظهر يوم عشية معركة واترلو، ضبط خفير في ضواحي المدينة شاباً اشتبه في أمره، لقد أقرّ أنه خادم

يعمل في خدمة ماريا لويز ووجدوا على جسده رسماً لتخطيط رسمه ويلينغتون بنفسه كخطة لتلك المعركة المقرّرة التي تباحثها مع الضباط من مختلف الكتائب، وكان الماركيز نفسه من بينهم.

يتذكر ويلينغتون جيداً بأنه أعطى رسم التخطيط بعد ذلك الاجتماع لموريس تشارلتون. والتحقيقات التي نشأت مع الضباط من بينهم الماركيز، جعلته يشعر بالحرج من هذا الاتهام.

لقد كان هنري سومركوت المساعد الايمن لويلينغتون حاضراً، ولقد كان تشارلتون مع ضابطين آخرين يعملون في فريق الماركيز.

جزع تشارلتون وخاف كثيراً عندما استنبط ذلك التخطيط وأقرّ بالاجماع، لذا قرّر أن يخفيها في علبة قرب سرير الماركيز، والذي لم يعترف بسوى أنه لا يتذكر فيما لو أحكم اقفال هذه العلبة قبل خروجه من الغرفة.

لا أحد غيره يمكنه الاقتراب من العلبة، وعندما جيء بها، وجدت بأنها مقفلة والمفتاح بحوزة تشارلتون، ولم يكن بوسع ويلينغتون فعله في ذلك الوقت، سوى أن يعيد تشارلتون إلى بريطانيا تحت الحراسة الشديدة.

وغادر بروكسل بعد ساعة من اصدار الأمر إلى باراكس لينتظر محاكمة عسكرية لن تتم إلا بعد عودة الجنود من المعركة.

ما حدث لم يعرفه الماركيز أو حتى ويلينغتون إلا عندما انتهت معركة واترلو.

فلقد عرفا عند وصولهما إلى لندن بأن موريس راوغ

الحرس وتمكن من الهرب من باراكس، ثم اختفى كليّاً.

لكن وقبل أن يعرفا بكل ذلك، اعترف أحد جنود الارتباط بينما كان على فراش الموت بعد اصابته البليغة في تلك المعركة، بأنه هو المسؤول عن حادثة السرقة تلك.

لقد أخذ مفتاح العلبة من جيب تشارلتون بينما كان هذا الاخير يستحم، فتحها ونزع منها التخطيط ومن ثم أعاد المفتاح إلى جيب تشارلتون.

نقدته ماري لويز مبلغاً كبيراً، كما وعدته بأنه سينال جائزة قيّمة لو وجد نابليون بأن هذا التخطيط ذو فائدة.

عاد كل من الماركيز، هنري سومركوت وضباط آخرين لتصحيح الخطأ، لكنهم لم يعثروا على موريس تشارلتون.

سأل الآن هنري سومركوت: «أين تعيش جيسيلدا؟ هناك عربة تنتظرني في الأسفل.»

أجاب الماركيز: «لا أعرف؟»

ردّد هنري قائلاً: «لا تعرف؟»

أومأ الماركيز برأسه بالايجاب قائلاً: «لم ترد أن تقول لي ذلك، لكنني أعتقدت أنه عاجلاً أم آجلاً، ستثق بي وتبوح بكل اسرارها الدفينة.»

صمت قليلاً ليتابع قائلاً بحيرة: «كيف كان بامكاني أن أتصور أن يخطر ببالي أنها قد تكون ابنة تشارلتون؟»

وافقه هنري سومركوت قائلاً: «معك حق، أمر لا يتصوره العقل.»

فقال الماركيز: «الآن فقط فهمت لماذا هي على هذه الحال من الفقر. فلقد عرفنا وقتها، بأن تشارلتون جمع عائلته وهرب من منزله في لندن لا بدّ أنه كان قد أفلس،

ومات بعد ذلك ليتركهم في حالة من الفقر الشديد، آه يا هنري، يجب أن نعثر عليها.»

شد الماركيز حبل الجرس، فقال هنري: «لقد قلت لك بأن هناك عربة تنتظرني.»

أجاب الماركيز: «إنني لا أفعل ذلك لأطلب عربة، بل لأنني أريد باتلي.»

فتح باب الغرفة في الحال، فقال الماركيز بنبرة لم يسمعها منه خادمه الخاص قبلا: «باتلي، لقد أضعت جيسيلدا ويجب أن أعثر عليها. أعرف أنني طلبت منك قبل الآن أن تتوقف عن السؤال عنها، لكن هل لديك أدنى فكرة بمكان إقامتها؟»

تردّد باتلي للحظات قليلة ثم قال: «لقد أطعت بالفعل أوامرك، لكنني عرفت عنوانها بمحض الصدفة.»

«تعرفه؟ هذا رائع يا باتلي كنت أعرف دائماً أن بإمكاني الاعتماد عليك! ما هو عنوانها؟»

«إنه في مكان حقير في البلدة يا سيدي، لقد حدث ورأيت الآنسة جيسيلدا تمشي في ذلك الاتجاه وأعتقدت أنه من الخطر عليها أن تسلك مثل هذه الطريق وهي لا تدري بمستوى الجوار الذي تدخله. لذا لحقت بها لأطمئن على سلامتها وعلى عدم تعرضها لأي خطر.»

توقف باتلي عن الكلام ليتابع بعد ذلك بعدم ارتياح: «رأيتها تدخل منزلاً يا سيدي في زقاق لا يجدر على سيدة مثلها أن تقيم فيه.»

«خذنا إلى هناك يا باتلي! خذنا إلى هناك!»

سأل هنري عند ذلك باهتمام بالغ: «هل أنت على قدرة

كافيه للقيام بذلك؟ دعني أذهب مع باتلي لنعيدها إليك.»

فسأل الماركيز بحدة: «وهل تتصوّر أنه قد يمكنني الانتظار هنا؟»

لم يجبه هنري، وأسرع باتلي يلتقط معطف الماركيز ليضعه على كتفيه.

كان بإمكان الماركيز أن يهبط السلالم بطريقة ابطأ من ذلك نظراً لوضع ساقه، لكن الظرف الطارىء جعله يسرع في خطاه، وكما قال هنري كانت العربة تنتظر في الخارج، فدخل السيدان إليها، أما باتلي أسرع ليجلس إلى جانب السائس.

سأل الماركيز عندها بمرارة: «كيف بإمكاننا أن نعوّض عن المعاناة التي ألحقناها بعائلة تشارلتون لعدم ثقتنا بكلامه وقتها؟»

أجاب هنري سومركوت: «لقد كان وقتها الاتهام ثابتاً ومقنعاً. اذكر بأنني فكرت عندها، أن من غير الممكن أن يكون بريئاً من عدم معرفته بأمر سرقة ذلك التخطيط.»

فقال الماركيز: «لقد كنا على خطأ كبير.»

وافق هنري متنهداً: «نعم، لقد كنا على خطأ كبير.»

لاحظ الماركيز بينما كانت العربة تنطلق بهما، بأنهما لم يعودا في تلك المنطقة المزدهرة بأبنيتها الفخمة، بل أنهما بدآ يعبران شوارع ضيقة حيث وقف أمام منازلها الحقيرة والقذرة، أشخاصاً يبدو عليها أنها بغضاء أخلاقياً.

لم يكن بإمكانه أن يتصوّر كيف يمكن لجيسيلدا أن تتحرك بين أشخاص كهؤلاء دون أن تتعرض للخطر.

على أية حال، ما يهم الآن أكثر من أي شيء، هو أن يعثر عليها.

أخيراً، وبعد أن انحرفت العربة داخل منطقة تتشابك بممراتها الضيقة، لتجتاز زقاق بالكاد تسعها، توقفت أمام منزل متهدّم فقد العديد من زجاج نوافذه، كما قد بدا بابها غير ثابت على مفاصيله.

نزل باتلي من العربة ودقّ على الباب، ثم فتح بعد بضعة دقائق بواسطة امرأة قذرة رثة الثياب أخذت تنظر إليه بشك.

سألته بعنف: «ماذا تريد؟»

أجاب باتلي: «نريد محادثة الآنسة تشارت.»

قالت السيدة بمرارة قاسية: «إنه لوقت مناسب من الليل ليتصل بنا رجل مثلك.»

بعد أن قالت ذلك، حوّلت نظرها إلى الماركيز، فشعرت بشلل في قواها من مظهره الانيق، وقالت على نحو متقطع: «عودي إلى الغرفة!»

ثم دفعت بيدها السيدة الاخرى واختفت داخل غرفة أخرى وأقفلت بابها بعنف شديد.

دخل الماركيز المنزل ولاحظ في الحال حاله غير الصحية وقد فاحت منه رائحة القذارة والعفونة، كما رأى سلماً تكسرت معظم درجاته، فتحرك باتجاه الباب الذي أختفت وراءه السيدة.

دق على الباب وسمع تمتمات لم يفهمها، ثم فتح الباب ليشاهد سيدتين تنظران إليه بذعر شديد.

كانت احدى السيدتين، جيسيلدا وقد بدا عليها أنها وصلت لتوّها، فخديها كانا ما يزالان تغمرهما حمرة التعب

والارتباك، هذا بالاضافة لسرعتها القصوى كي تصل إلى المنزل.

لقد وقفت إلى جانب والدتها التي كانت تشبهها إلى حدّ كبير، عدا أن شعرها ملأه الشيب، والخطوط في وجهها أصبحت ظاهرة من جراء المعاناة والفاقة.

لم تقل كل من السيدتين شيئاً، بعدها تجاهل الماركيز جيسيلدا وتقدم من السيدة تشارلتون ليأخذ يدها بين يديه قائلاً: «لقد كنا نبحث عنك يا سيدة تشارلتون، ولأكثر من عام. كنّا نحاول أن نجدك كي نقول لك بأن زوجك أتهم باطلاً وقد برّىء كليّاً من التهمة التي وُجهت إليه.»

شعر بيدها ترتجف بين يديه، بينما كانت عيناها تنظران إليه بتساؤل وكأنها تبحث عن تأكيد لكلماته.

ثم وبصوت بالكاد سمعه، سألته: «هل هذا... صحيح؟»

أجاب الماركيز: «صحيح جداً، ولا يسعني سوى أن أقدم اعتذاري البالغ أنا ونيابة عن ويلينغتون وضباط آخرين، لما قد الحقناه بكم من اسى ومعاناة.»

توقف قليلاً ليتابع: «لو فقط، انتظر زوجك! فلقد بعث اللورد ضابطاً إلى بريطانيا لحظة انتهاء معركة واترلو، ليقول له إن المسألة سوّيت بعد أن اعترف السارق الحقيقي بجريمته قبل أن يموت.»

تنهدت السيدة تشارلتون بعمق وكأنما الحمل الذي كانت تحمله على كتفيها طوال الوقت، قد أزيح عنها، ثم قالت: «إنني سعيدة لأجل ولداي لأنكم اكتشفتم الحقيقة، لكن للأسف، لا يمكنكم أن تعيدوا لي زوجي.»

أجاب الماركيز: «أعرف ذلك، لكنني أعتقد أنه سيفرح

حيثما هو لمعرفته بأنكم لن تعانوا وتحملوا العار عنه مجدداً.»

ثم تابع وهو ما يزال يمسك بيدها: «ستجدين بعض العزاء عندما تعرفين بأنك لن تحصلي فقط على راتب زوجك وتعويضاته العائلية، بل على مبلغ لا بأس به جمع من الضباط واللورد نفسه كتبرع منهم لزوجك الذي اتهم باطلاً.»

لمس الألم في عينيها، فأضاف: «كما يجب التأكد من أن رابرت سيعود إلى كامل عافيته ونشاطه كي يخرج من المستشفى.»

ترقرت الدموع في عيني السيدة تشارلتون، فحوّل الماركيز نظره ينقله في أرجاء الغرفة.

إنه لم يسبق له وشاهد فقراً بهذا القدر، وبهذه الحقارة لتعيش فيه فتاة بجمال جيسيلدا. الجدران متسخة والعفونة تظهر في زوايا الغرفة التي وضع فيها ثلاثة أسرة كانت من الواضح أثاثهم الوحيد.

ثم قال بطريقة الضابط الذي يصدر الأوامر: «هناك عربة في الخارج، سأخرجكما من هذا المكان في الحال!»

كان ينظر إلى جيسيلدا حين قال ذلك وأضاف: «هذا ليس بمكان مناسب لك، كما تعرفين.»

لقد بدت حقاً لا تناسب مثل هذا المكان وهي في ثوبها الانيق الزهري اللون.

تدخل هنا هنري سومركوت ليقول للسيدة تشارلتون: «أريد أن أقول لك يا سيدتي، كم كنا جميعاً نقدر زوجك، وكم كنا نشعر باليأس حين علمنا بأنه اختفى بعدما ظهرت الحقيقة.»

لم تستطع التفوّه بأية كلمة بسبب الدموع التي أخذت تنهمر من عينيها، لكنه تابع: «لقد كان الماركيز مريضاً، لكنني من ناحيتي أخذت انتقل في أكثر أقطار بريطانيا آملاً أن أجد أي شيء يهديني إلى مكان موريس.»

تمكنت السيدة تشارلتون أن تقول أخيراً: «لطالما كان فخوراً بالكتيبة التي عمل فيها.»

أجاب هنري متعاطفاً: «لقد كان سوء تفاهم رهيب.»

قال الماركيز هنا لجيسيلدا: «كيف كان بامكانك أن ترحلي عني؟ كيف كان بامكانك أن تتصوري أنه مهما كنت سأتخلى عنك بهذه السهولة.»

أجابت: «حاولت أن... أكرهك، كما كرهت كل من لم يثقوا... بوالدي.»

أدرك وهو ينظر بعمق في عينيها، انه لا يمكن لشيء أن يفرقهما عن بعض في المستقبل.

ثم قال لها بصوت منخفض لم يسمعه سواها: «إنك تخصينني وحدي.»

الفصل السابع

ساعد باتلي سيده الماركيز بالاستلقاء فوق السرير قائلاً: «بما أن الطقس بارد هذه الليلة يا سيدي، سمحت لنفسي أن أشعل المدفأة، لأن البرودة ستشتدّ أكثر بسبب الرياح التي ستهب من تلال مارفي.»

أجاب الماركيز: «لقد أحسنت صنعاً يا باتلي.»

ثم حمل باتلي ثياب سيده واتجه نحو الباب وهو يقول: «اسمح لي أن أقول يا سيدي، بأنه كان يوماً سعيداً، كما أرجو لك ولسيدتي أطيب التمنيات حتى آخر يوم من حياتكما.»

«شكراً لك يا باتلي.»

خرج الخادم وأقفل الباب من ورائه بهدوء.

لقد كان هذا اليوم يوماً شاقاً وطويلاً، كما كان هناك الكثير للقيام به في اليومين الماضيين منذ أن أخرج هو وهنري السيدة تشارلتون وجيسيلدا من ذلك المنزل الحقير وغير الصحي الذي كانتا تعيشان فيه.

لقد نزلتا تلك الليلة ضيفتان على منتجع الكولونيل بيركلي، مقرّراً الماركيز أن يجد لهما في صباح اليوم التالي شقة أنيقة تتمكن فيها السيدة تشارلتون أن تعتني بابنها رابرت حين يخرج من المستشفى.

وكان ما أراد الماركيز، لأنهما وجدا نفسهما في شقه تتألف من غرفتين واسعتين وغرفة للجلوس مزيّنة

بعناية وذوق رفعين، وهي في الطابق الأول من بناء حديث.

ان الماركيز متأكد كل التأكيد من أن السيدة تشارلتون ستقابل العديد من الاصدقاء الذين حالما سيعرفون بأنها في شلتنهام، سيسرعون لزيارتها ليجدّدوا ما كان بينهم من صداقة في السابق.

أمضت جيسيلدا يومين كاملين في شراء الثياب وكماليات أخرى لها ولأمها كانت قد اعتقدت فيما مضى أنهما لن يتمكنا حتى من رؤيتها من جديد.

فجيسيلدا وعندما عرفت بالمبلغ الكبير الذي جُمع لوالدها، وجدت أنه من الصعب عليها أن تعبّر عن امتنانها وشكرها لكل ذلك.

لقد قالت الماركيز: «لو فقط عرفنا.»

أجاب الماركيز: «لو فقط تمكنا من العثور عليكم.»

كان قد سمع قبلا ببعض العوز والحرمان اللذين تحملتهما عائلة الضابط تشارلتون منذ أن رحل بهم خارج لندن ليلة هروبه من الحرس، لأنه كان يعرف بأنهم سيذهبون إلى منزله أولاً بحثاً عنه، لذا وبسرعة كبيرة، حزموا ما أمكنهم من أمتعة واستأجروا عربة نقلتهم من لندن إلى الريف.

عزم موريس تشارلتون على أن يجد عملاً، لكن الصعوبة كانت في أنه لا يعرف من يمكن أن يعرّف عنه، هذا عدا أنه وبصفته جندياً لم تكن لديه مؤهلات تذكر.

أخيراً وجد عملا في احدى المزارع، وعمله يقتضي العناية بالجياد وهذا ما كان خبيراً به، لكن ولسوء الحظ، بينما كان يقوم بهذا العمل، قذفه ثوراً وألقاه أرضاً.

لهذا السبب، وهذا ما تمكن من فهمه الماركيز الآن، لماذا كانت جيسيلدا ماهرة في تضميد الجراح.

فلقد التأمت جراح موريس تشارلتون بواسطة طبيب ريفي متمرس، لكن ببطء، وبعد فترة علاج طويل وذلك لعدم قدرتهم على دفع تكاليف علاج أفضل، أصيب في النهاية بداء الرئة.

كما أنه وقبل أن تدرك امرأته وابنته ماذا أصابه توفي متأثراً بهذا المرض.

وقد قالت جيسيلدا للماركيز حين أخبرته بالذي حدث: «لا أعتقد أنه كان يتمنى الحياة لنفسه، لأنه كان يشعر بالمذلة والعار بعد أن اتهمه أعزّ أصدقاؤه ولم يصدقوه.»

التقطت أنفاسها قبل أن تتابع بمرارة قاسية: «لطالما كان رجلاً مكرّماً ومشرّفاً، رجل يحفظ كلمته. حتى نحن حين كنّا أطفالاً، كان يعاقبنا بقسوة حين نكذب كذبة ولو تافهة.»

قال الماركيز ملاطفاً: «أعرف يا عزيزتي كم الأمر صعب عليك، لكن الاتهامات كانت قوية ضده، لأنه كان الشخص الوحيد الذي يحمل مفتاح العلبة، الشخص الوحيد الذي وضع اللورد كل ثقته به وسلمه أوراقه الهامة.»

فقالت جيسيلدا بصوت ضعيف: «لو أنه لم... يصادق تلك المرأة... ربما لما كان حصل كل ذلك.»

أدرك الماركيز عند ذلك أنه لا بد اعترف لزوجته ولها بعلاقته بماري لويز، وأدرك أيضاً أن ذلك قد آلم جيسيلدا.

لذا فقد فضّل ألاّ يتحادث معها بمثل هذا الموضوع،

لكنه سألها بالمقابل: «أخبريني بالذي جرى بعد وفاة والدك.»

«فكرت والدتي بأنه يجب أن ترسل رابرت إلى المدرسة، لأنها رأت أنه حتى لو أرسلته إلى مدرسة تتقاضى بنساً واحداً في اليوم، يكون أفضل من ألاّ يحصل على أي ثقافة.»

تنهدت جيسيلدا قبل أن تتابع: «كانت تعمل طوال الوقت بالتطريز، ولأنها كانت تطرّز بمهارة، وجدت أن كل ما كانت تنجزه، كان يباع بسهولة. كانت المحلات تدفع لنا القليل، لتبيعه للزبائن بمبالغ ضخمة.»

«ولهذا السبب جئتم إلى شلتنهام؟»

أجابت جيسيلدا: «وجدنا مسكناً خارج البلدة في قرية، ولقد كنّا ننعم بالرحة إلى أن صدمت احدى العربات رابرت.»

لمس الماركيز الخوف في صوتها كما في عينيها، فقال لها ملطفاً: «هذا أمر آخر عليك أن تنسينه يا غاليتي، لقد قال خلال ستة أشهر. وبعد ذلك سأعين له معلماً خصوصياً ليزيده ثقافة، وبعد ذلك إذا رأيته أنه لا يزال يحتاج إلى المعالجة، سأرسله مع والدتك إلى أحد أهم المنتجعات في أوروبا.»

تمتمت جيسيلدا شاكرة: «انك بغاية الكرم... بغاية الكرم.»

كان الماركيز في وقت سابق، قد قال لها بأنه عازم على اعطاء والدتها السيدة تشارلتون منزلاً في مقاطعته ليند، فقال لها الآن: «هناك العديد من المنازل الصغيرة لوالدتك أن

تختار ما تفضله عن الآخر. فهذه المنازل قريبة منا، وكما أنني متأكد بأن والدتك ورابرت سيتعرفان على العديد من الاشخاص في الجوار.»

توقف الماركيز قليلاً ليتابع بلطف: «لكنني سأشعر بالغيرة كثيراً لو أنك أمضيت معظم أوقاتك معهما وأهملت أمري.»

اعترضت جيسيلدا قائلة: «تعرف بأنني لن أفعل ذلك. أبداً، أبداً! أريد أن أكون معك! أريد أن أكون قريبة منك كل لحظة... كما كنت أريد دوماً ذلك.»

ابتسمت له قبل أن تتابع: «لا تدري كم كنت اشمئز لاضطراري لأن أكون مع جوليوس بدلاً منك. لكنني كنت أعرف بأنك تدبرت لي أن ألعب هذا الدور لتساعدني كما لتساعده، إنما كنت دائماً أفضل أن أبقى... خادمتك.»

صحح الماركيز قائلاً: «لا بل ممرضتي حارستي الهامي وحبي الكبير!»

www.liilas.com
وحده فاضيه

وعندما أعلن الماركيز لها بأن زواجهما سيتم بعد ثلاثة أيام، اعترضت جيسيلدا قائلة: «إنك لم تتحسن بما فيه الكفاية كي تتزوج.»

أجاب الماركيز بعناد: «لا يمكنني الانتظار أكثر، لقد خسرتك مرة ولن أجازف مرة أخرى. ستتزوجيني هنا في شلتنهام وفي اليوم الذي سيلي الزفاف، سنعود إلى مقاطعة ليند.»

حاولت جيسيلدا اعتراضه مرة أخرى، لكنه لم يمنحها

أية فرصة للكلام وتابع: «بعد ذلك، وعندما استعيد كامل عافيتي، سنسافر إلى خارج البلاد، لكن في الوقت الحالي أعتقد أننا سنكون سعداء للمكوث معاً في الريف.»

أجابت جيسيلدا: «لا يهمني أين أكون، المهم بأنني سأكون معك دائماً.»

مازحها الماركيز قائلاً: «إلى أن تضجري مني.»

فسألته: «هل تعتقد حقاً بأنني سأصل إلى هذه الحال؟ إنما ما أعتقده هو أنك أنت من سيضجر مني، لأنك لا تحب النساء الغبيات خاصة عندما أجادلك.»

نفى الماركيز قائلاً: «لا بل يعجبني كل شيء تقومين به، إنني لم، وما أقوله حقيقي، أعرف واحدة مثلك يا جيسيلدا.»

«أحقاً ما تقوله؟»

أجابها: «وهل تتصورين عكس ذلك، فإذا كنت تعتقدين بأنني لن أتزوجك في الغد، فإنك ومن دون شك مخطئة، ولا تقلقي على صحتي وسأثبت لك ذلك متى أصبحت زوجتي.»

• • •

تمّ الزفاف في حفل هادىء، وكان الكولونيل بيركلي أحد الشهود على هذا الزواج الذي لم يحضره سوى السيدة تشارلتون وهنري سومركوت اللذين كانا شاهدين آخرين أيضاً.

كانت جيسيلدا تعرف بأنهما معاً سيتخطيان كل المصاعب والمشاكل وبأن الحب والسعادة سيغدوان أعمق بينهما على مر السنين.

لقد أصرّ الماركيز بالرغم من أن جيسيلدا وجدت في ذلك عمل متهوّر، بأن ترتدي ثوب زفاف أبيض، كما أن السيدة فيفيان جعلتها تبدو جميلة وانيقة، وهذا ما كان مفهومها دائماً بكل العرائس.

كان مقرّراً أن يسلمها هنري سومركوت إلى عريسها الماركيز الذي قال لها: «أعرف أن اللورد لن يمانع بأن يأخذ مكان والدك لو طلبنا منه ذلك.»

لكن جيسيلدا أجابت: «أفضل أن يكون الذي سيأخذ مكان والدي، واحد من أفراد كتيبتك، وأعتقد أن الكابتن سومركوت كان معجباً بوالدي.»

وافقها الماركيز: «هذا صحيح، فلقد قام هنري بالبحث المتواصل عن والدك أكثر من غيره.»

وعندما أمسك هنري بيدها ليسلمها إلى الماركيز، اعتقد هذا الاخير أنه من المستحيل أن تبدو واحدة بمثل نقاوتها وجمالها.

لأنه وجد في جيسيلدا ما لم يجده في أية فتاة عرفها في السابق، فكل ما فعلته حتى الآن لا يدل على أنانيتها، فإذا أرادت أن تضحي، تكون تضحيتها للآخرين وليس لأجلها، فالبرغم من شجاعته في بطولاته أبان الحرب، كان يحترم ويقدّر شجاعتها هي في مجابهة المصاعب.

كان يصعب عليه أن يقول لها ما شعر به عندما أنقذت حياته بطريقة كادت أن تعرض نفسها للخطر.

لقد قامت بذلك بدافع الحب وعرف بأن ذلك كان نابع من قلب يغمره الحب ليس فقط له، بل لكل من كان يعاني من القسوة والحرمان.

كان يدرك أيضاً ما شعرت به تجاه تلك المسكينة اميلي كلترباك.

فهم أيضاً وأيضاً لماذا كرهت خداعها لجوليوس وكيف حاولت أن تجد شيئاً حسناً فيه.

أما لجيسيلدا، فقد كان هذا الزواج كحلم وردي لن تستفيق منه.

كانت سعيدة أيضاً لأن اسم والدها ابرىء من الاتهام الخطير الذي كان قد وجه إليه، وكيف أن الحظ وضع الماركيز في طريقها كي يظهر لها الحقيقة.

كما كانت شاكرة وممتنه بطريقة لا يمكن التعبير بها بأية كلمات للحب الكبير الذي وهبه الماركيز لها.

كيف كان بإمكانها أن تتصور، وهذا ما سألت نفسها به دائماً، بأنها وعندما أرسلت إلى جناحه لتقوم بالتنظيفات، بأن والدها كان في كتيبة هذا الرجل الذي هتف قلبها له منذ أن وقع نظرها عليه.

كانت وقبل أن يعثر عليها الماركيز، قد فكرت أن تغادر المنتجع وتختفي عن الانظار، لكن وما اوقفها عن تنفيذ ذلك، الصعوبة في ايجاد عمل في مثل هذا الوقت، وبأنه قد تموت جوعاً مع والدتها، كما رابرت لن يعاود المشي من جديد.

والأهم من ذلك والذي أوقفها عن التفكير بالابتعاد، ما حملته في قلبها من حب الماركيز وجعلته سرّاً دفيناً آخر في قلبها.

وكم كانت تخشى، وذلك قبل انجلاء الحقيقة، أن يتحطم قلبها لابتعادها عنه بعدما شعرت وهي قريبة منه بأنها تلامس النجوم.

لكنها الآن تقول لنفسها: هناك الكثير من الاشياء لنقوم بها معاً، كما أنني سأعتني به وسأجعله سعيداً بشكل لم يعرفه من قبل بسبب وحدته.

كما جيسيلدا كما الماركيز فكّر باسعادها لينسيها كل ما مرّت به من محن وتجارب.

لذا وبعد أن انتهى حفل الزفاف وذهب كل إلى غرفته الخاصة كي يبدل من ثياب تلك المناسبة، قال الماركيز لنفسه: إنها ستأتي إلي.

بعدها وبينما كان ينتظر مجيئها بترقب وشوق، فتح باب الغرفة ودخلت منه جيسيلدا.

ببطء قائلة بنبرة متوترة: «هل تشعر... بالراحة؟ ألا تشعر بالألم... بسبب وقوفك لوقت طويل هذا اليوم؟»

أجاب الماركيز: «لقد اعتنى بي باتلي جيداً كما أوصيته، ووضعني في السرير وكأنني طفل، وأشعر الآن بأنني قادر على الاعتناء بنفسي.»

«سأعتني بك بنفسي... في المستقبل.»

«كما سأعتني بك.»

صمت قليلاً قبل أن يتابع: «إنه محرج جداً يا عزيزتي أن أجعلك أنت تأتين إليّ بينما كان أنا من عليه فعل ذلك، لكن لسوء الحظ، ليس هناك من حل آخر.»

قالت جيسيلدا: «أردت أن أجيء... لكنني الآن... لا أعرف ما يجب أن أفعله.»

سألها الماركيز: «وما الذي تريدين فعله؟»

«أريد أن أبقى دائماً إلى جانبك.»

«أريد ذلك أكثر مما تريدينه أنت يا غاليتي.»

تنهدت بارتياح وكأن هذا ما كانت تريد أن تسمعه منه.

ابتسم الماركيز قائلاً: «إنني يا عزيزتي لم أرَ في حياتي امرأة طيبة ورائعة مثلك. آه من كان يعلم بأن تلك الخادمة الغامضة قد تصبح زوجتي في يوم من الايام؟ لقد جعلتني أشعر بالفخر وبأنني أكثر الرجال حظاً في العالم بأكمله.»

تمتمت جيسيلدا: «لقد قلت... بأنني سأبقى في خدمتك... إلى أن لا تعود بحاجة إلي.»

أجاب الماركيز: «لن أتوقف عن حاجتي إليك حتى الممات. إنك لي! إنك قد أصبحت جزءاً مني ولن نتحرر أبداً من بعضنا البعض.»

همست جيسيلدا: «لا يمكنني أن أحلم بشيء أكثر من ذلك. أريدك... أنت فقط... كما ولا شيء آخر في العالم قد يكون أكثر أهمية منك.»

لقد أصبحا شخصاً واحداً ولم يعد هناك من غموض أو أسرار، فقط الحب الذي أخذ يتزايد ويتزايد ليشمل العالم بأجمعه.

تمت

www.liilas.com
وحده فاضيه